القرآن

مدخل إلى القرآن الكريم وعلومه

العنوان الأصلي: KORAN

نقله إلى العربية : الدكتور هاني صالح

العبيكان
Obeikan

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

الناشـــر

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

القرآن كتاب الله في الأرض، كتاب الإسلام المتعبّد بتلاوته إلى يوم الدين، الجامع لأحكام الدين، الشارح لمنهج حياة المسلم، الهادي إلى الحياة الفضلى الموصلة إلى رضا الله..

القرآن كلام الله المعجز، المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر، الذي تعهد الله سبحانه في علاه حفظه على مر العصور والدهور، إلى أن تقوم الساعة... هذا القرآن حظي بعناية فائقة من العلماء منذ العصور الأولى، وما صدر كتاب يفسّر آياته، أو يتحدث عن إعجازه، أو يشرح بلاغته، أو يُعرب ألفاظه وجمله، إلا ظن القارئ أن الكتاب لم يترك مجالاً لمستزيد، ولكن ما إن ينتهي من مدارسة هذا الكتاب حتى يجد كتاباً جديداً، القرآن ميدان بحثه، وفيه جديد كذلك..

هذا هو القرآن المعجز الذي يعطيك في كل قراءة جديدة مدىً لم تكن قد وقفت عليه في قراءة سابقة، وهذا المدى غير ناتج عن فهم الإنسان وحسب، بل ناتج عن غنى القرآن وبلاغته وآياته ومعانيه..

مراد هوفمان والقرآن:

لم تقتصر الدراسات القرآنية على العرب المسلمين، وإنما كانت عامة، فقد درسه علماء عرب مسلمون، وعلماء عرب غير مسلمين، وعلماء مسلمون غير عرب، وعلماء غير عرب وغير مسلمين في الوقت ذاته..

مراد هوفمان أحد العلماء المسلمين من غير العرب، أنجز دراسات عديدة عن القرآن والإسلام، ومنها كتابه الذي نحن بصدده الآن «القرآن»، وقد اختار المؤلف عنوان «القرآن» الجامع المانع، الذي لا يحتاج إلى أي إشارة أو شرح، واختار المترجم الفاضل الدكتور هاني صالح المحافظة على العنوان ذاته، مع عبارة ثانوية تعطي مفاتيح الكتاب للقارئ العربي، فكان العنوان: القرآن ـ مدخل إلى القرآن الكريم وعلومه. فجاء العنوان موفقاً غاية التوفيق، لأنه وضعه بعد إنجاز الكتاب، فصار العنوان معبراً عن الكتاب ومحتوياته أصدق تعبير.

ماذا تضيف دراسة هوفمان وأمثاله؟:

في كتاب لطيف الحجم ماذا يمكن أن يضيف مؤلفٌ إلى القرآن وما نعرفه عنه؟ سؤال يتبادر إلى الذهن، وهو جدير بالطرح بعد أن قرأنا عشرات بل آلاف الكتب عن القرآن الكريم..!

لكن الحقيقة العلمية تقتضي أن نقول: إن الكاتب أضاف الكثير الكثير، وساعدنا في فهم ما يريده إلمام من المترجم بتراث الإسلام والقرآن ، حيث قدّمه كما لو أنه مؤلف بالعربية أصلاً.

وقد تميز هذا الكتاب بميزات عديدة لم أجدها في جل ما قرأت من دراسات قرآنية من قبل:

1- الدخول المباشر في الموضوع، إذ ليس في الكتاب عبارة واحدة يمكن أن توصف بالحشو، فلا مقدمات، ولا ثرثرة، وإنما كان المؤلف يدخل في جوهر الفكرة التي يريدها، ويعرضها كما هو مقتنع بها، ويعرض الآراء الأخرى دون انتقاص أو تحيز.

2- احترام عقل القارئ، فالمؤلف يظن بقارئه الظن الحسن، ويفترض أنه ليس بحاجة إلى شروح مطولة في أمور عرضتها الكتب الأخرى، لذلك كان يكتفي بالإشارة إلى الدراسات التي يأخذ عنها، تاركاً للقارئ حرية الرجوع والاستزادة، ومن هنا وجدناه يعرض لقضايا كبيرة وكثيرة بسطور قليلة مثل: جمع القرآن، أنواع الخطوط العربية، رحلة كتابة المصحف، التفاسير، الدراسات اللغوية والبلاغية، وهكذا... والطريف أن هذا الأسلوب الذي استخدمه الكاتب أعطى معلومات وافية وكافية، فلم يكن هذا الدخول المباشر على حساب الموضوع وحقه، اختصار بلا إخلال بلبِّ الموضوعات التي جاء بها ـ وما أكثرها ـ!

3- مخاطبة الفكر الغربي كما يفهم، فحتى يكون مقنعاً للمجتمع الذي يتوجه إليه في كتابه أصلاً، اعتمد آليات التفكير الغربي القائم على عرض الحجج والبراهين، وعرض وجهات النظر المتعددة، والتسليم بالرأي الآخر إلى أن يهدمه بطريقة مثلى وعلمية في الوقت ذاته.

4- الابتعاد عن المبالغة والعاطفة، فمع أن المؤلف أعلن إسلامه، إلا أنه لم يتعامل مع موضوعه بطريقة مَرَضية، وإنما تعامل معه تعاملاً منطقياً بعيداً عن العاطفة التي تفقده الكثير من المصداقية، والمؤلف يدرك ما يقوم به إدراكاً تاماً، ويتوقع الرد، ويضع الإجابة المفحمة.

5- الإحاطة والشمولية، من الشرق إلى الغرب يجول بنا المؤلف مستعرضاً الآراء والمصنفات التي أُلّفت في القرآن وتفسيره وعلومه، وفي عبارات موجزة ومعبرة يعرض الكتاب، ويعطي حكما سليما ومن ذلك تصنيف التفاسير:

- التفاسير الكلاسيكية
- التفاسير السياسية
- التفاسير الطائفية
- التفاسير الصوفية الباطنية
- التفاسير العقلية المنطقية
- التفاسير التربوية

هذا التصنيف الذي كنا نعرفه، لكنه كان مشتتاً فجمعه بإحاطة وشمولية للقديم والجديد، ولمن قرأنا لهم، ولمن لم تصلنا كتبهم.

6- الفهم الواسع للقرآن الكريم، إن قارئ الكتاب يستشعر أن الكاتب استوعب القرآن الكريم استيعاباً جيداً، وتقصىّ في الدراسات التي عقدت حوله دون أن يميل إلى رأيٍ دون آخر.

7- التفسير الصحيح لمعنى مناسبة الزمان والمكان، ففي الوقت الذي نجد تفسيرات غير مقبولة لمعنى مناسبة القرآن لكل زمان ومكان، وجدنا المؤلف يقدم إشاراتٍ ذكيةً عن هذه المناسبة من خلال إيراد خصوصية حياة المسلمين في المجتمعات الغربية، وهذا يذكرنا بما كتبه بعض المسلمين الغربيين مثل الأمريكي جيفري لانغ، وهذه الكتابات تشير بجملتها إلى ضرورة التعايش مع المجتمعات الغربية، والحفاظ على الدين الإسلامي.

8- التفسير المنطقي لبعض الظواهر القرآنية مثل: تفسير الحروف التي تبدأ بها السور القرآنية، وبعد أن أفرط الكتّاب المسلمون في تفسيرها واختلاق الآراء، يأتي لينهي هذا الخلاف بكلمات.

أما الظاهرة التي برع في تحليلها فهي ظاهرة استيعاب القرآن للظواهر الكونية، فشرح عدداً من الأشياء التي وجدت في القرآن بما يمثّلها، لكنه في الوقت نفسه انتقد المبالغة في جعل آيات القرآن تحوي العلوم الكونية والبحتة، وهو بهذا يقول: إن وُجد في القرآن ما يفسر الظاهرة فهو دليل إعجاز، وإذا لم يكن موجوداً، فالأمر لا ينتقص من قيمة القرآن، لأن القرآن كتاب عقيدة ودين، وليس موسوعة علمية.

9- المقارنة الهادئة بين القرآن والإنجيل والتوراة، ولم يدفعه تحوله عن المسيحية إلى الإسلام أن ينتقص بعاطفة مشوبة، بل إن معالجته اعتمدت المنطق الذي يعرض عرضاً وصفياً، قد يُعجب أحدهم، وقد لا يُعجبه، لكنه لا يستثيره ولا يدفعه إلى هجوم مضاد.

دَرسٌ من مراد هوفمان في التأليف:

إن حديثنا عن الكتاب لا يندرج تحت باب الإعجاب بشهادة غربية عن الإسلام ـ مع أنه صار من المسلمين ـ لكن فرحنا بهذا الكتاب وأمثاله أنه يمثل درساً حقيقياً في التأليف المقنع، البعيد عن الثرثرة، الذي يصل إلى غايته بسهولة ويسر، ولو أن المؤلفين المسلمين يسلكون هذا المنهج في التصنيف لاستطعنا أن نُفهم أولادنا أولاً الإسلام بصورة لائقة وصادقة، وذلك قبل أن نُفهم غير المسلمين حقيقة الإسلام.

وليس غلطاً ولا يغض من القيمة الاعتراف بأن مراجعة هذا الكتاب من إنسان متخصص في علوم القرآن الكريم، تقدم له إضافات جديدة، لأنه جمع شتات العلوم والمعارف بعبارة مختصرة وموجزة ووافية، بعد أن كان يحتاج إلى مراجعة مجلدات عديدة للوصول إلى ما يريد.

وبعد، لا بد من توجيه الشكر لدار النشر التي اختارت هذا الكتاب للترجمة، ومثل هذا العمل لا يندرج تحت الباب الدعائي الذي تعودناه في السنوات الأخيرة، بقدر ما يندرج تحت باب فتح النوافذ على مناهج جديدة علمية في التأليف في القرآن وعلومه.

والشكر أيضا لاختيار الدكتور هاني صالح للقيام بعبء هذه الترجمة، والتي لم يكن من الممكن أن تحقق الغرض لولا إحاطته التراثية، ومعارفه القرآنية المعمقة، والتي برزت في الترجمة الدقيقة، وفي حواشيه القليلة، ولكنها كانت غاية في الأهمية، والتي عززت آراء هوفمان قبل أي شيء آخر.

القرآن لمراد هوفمان كتاب جديد في كتاب أزلي، يحسن أن يكون صديقاً لكل مسلم وقارئ مهما كان انتماؤه، نتمنى أن يصل إلى الشريحة المستهدفة منه، وأن يجد القبول الذي يليق به، فهو كتاب في منهج القراءة السليمة قبل كل شيء...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق في 27 رمضان 1427هـ

20 تشرين الأول 2006م

إسماعيل مروة

مقدمة

القرآن كونٌ ناطق

والكون قرآنٌ صامت

(حكمة إسلامية)

أشعر اليوم أنني كنت متسرعاً حينما التزمت بكتابة «القرآن ـ مدخل في القرآن الكريم وعلومه». ألا يعتقد من يكتب مدخلاً إلى موضوع ما أنه متمكنٌ فيه؟ لا شيء من ذلك يستطيع أن يدّعيه أحد في موضوع القرآن!

﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴿١٠٩﴾﴾[الكهف: 109].

﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27].

وفي الحقيقة فإن ثقافة الفرد وحياته لا تكفي إلا للإلمام بجزء يسير من هذا الكتاب. كذلك فإن التعاون بين العلماء من فقهاء الدين إلى الفلاسفة والمؤرخين وعلماء الأجناس والنفس والاجتماع وإلى الأدباء وعلماء الطبيعة والحياة وحتى الاختصاصيين في اللغة العربية وآدابها، لا يؤدي إلى إحاطة شاملة كاملة، فالقرآن يعطي لكل فرد ولكل مجتمع وفي كل عصر وزمان معارف جديدة. إنه الكتاب الأهم بامتياز في كل الأوقات.

وهكذا فقد توصل أستاذ اللاهوت البروتستانتي باول شفار تسيناو إلى القناعة بأن القرآن «الذي يبدو على شكل مجموعة أقسام مختلفة غير متكاملة وغير متوافقة، في حقيقة الأمر جوهرة لا متناهية في كل الاتجاهات، مرسلة أشعتها في دوران دائم». لقد وجد أنّ «صورة دالّة على الخلق الأول تشع من كل وجه صقيل من وجوه هذه الجوهرة». (راجع: «علم القرآن للمسيحيين» 1982) لقد عاش شفار تسيناو مع «تطوّر اللغة الإلهية».

ومن ناحية أخرى فإن الدخول إلى مجاهل القرآن الكريم ليس أمراً هيناً بسبب ما قد يبدو من عدم نظام وانتظام في ترتيبه، وبسبب تتابع الصور والنداءات والقصص والتوجيهات العلمية الواقعية بشكل مفاجئ أحياناً أو غير متدرّج. كيف يستطيع المرء أن يتجشم عناء كتاب فيه الكثير من التكرار والانتقال الدائم المفاجئ من موضوع إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى حتى ومن متكلم أو مخاطَب إلى آخر؟ وفي الحقيقة فإنه من الممكن الشعور برفض هذا الكتاب بداية. كذلك فقد وجد يوهان فولفغانغ فون غوته أن قراءة القرآن تشد المرء إليه ولو بمشاعر مختلفة، فقد كتب في تعليق على "الديوان الغربي الشرقي" أن هذا الكتاب «يجعلك تنفر منه بدايةً، ولكنه لا يلبث أن يجذبك ليدهشك بعد ذلك، وينتزع منك احترامك وتقديرك له».

لا تستطيع أن تتكلم عن القرآن دون أن تعرف شيئاً عن محمد ﷺ، كما لا تستطيع أن تتكلم عن كليهما دون أن تخوض في دين الإسلام.

ومع ذلك فقد جهدت أن أقتصر في هذا المدخل، قدر إمكاني، على القرآن الكريم، خاصة وأني قد كتبت كتاباً آخر تحت عنوان «مدخل في الإسلام»(1).

ومن ناحية أخرى فإنه لا يستغنى بهذا المدخل عن القراءة الخاصة للقرآن. لا بل على العكس فإنه من المستحسن أن تكون إلى جانبك نسخة من المصحف حين قراءتك لهذا الكتاب.

إستامبول في أواخر صيف 2001

مراد فيلفريد هوفمان

(1) نشرته دار ديدريخ سنة 2001 وترجمه إلى العربية كامل إسماعيل دار العبيكان في الرياض 2006.

القرآن، كتاب مقدس

«الله هو ذلك الباطن في تجلياته»

(مارتين بوبر)

ذاكرة الشعوب هي تلك الأساطير والحكايا والنبوءات والخرافات والحِكَم والتراتيل الدينية والتوسلات والتضرعات. وصلنا بعض منها بشكل مخطوط، ومنها ما يعود إلى ما قبل التاريخ وبقي محفوظاً في كتابات تسمو إلى درجة الكتب المقدسة.

فهناك من الإرث الثقافي الهندي كتاب «فيدا» (المعرفة)، بما يرافقه من الشروحات والتفاسير «شروتي»، وتلك الكتابات الصوفية الهندية القديمة «أوبانِشاد»، وكذلك كتب الـ«بورانا» الستة والثلاثون، وملحمة «مَحَبَّراتا» التي تضم مئة ألف بيت مزدوج من الشعر، وأخيراً ذلك الشعر الديني التعليمي «باغافاد غيتا». هذا الإرث الديني الذي يعود إلى ما بين 1200 و1000 سنة قبل الميلاد.

كذلك يعرف العالَم البوذي كتابات مقدسة منها «قانون بالي»، الذي كتب بإحدى لهجات وسط الهند، ويضم ثلاث «سِلال» (تريبيتاكا)، بالإضافة إلى «القانون السنسكريتي»، الذي وصلنا غير كامل، وكذلك كتب لاليتا فستارا وماهافاستو وسادهارما بونداريكا وبراجناباراميتا.

ويحدد بوذا تاريخ هذه الكتب، فقد عاش سيدارتا غاوتا فيما بين 560 و480 قبل الميلاد، إلا أن مؤلفي هذه الكتب لم يعرفوا أن بعضها لم يظهر إلا بعد ظهور السيد المسيح.

أما الديانة اليهودية فتعتمد على العهد القديم، كتابها المقدس بامتياز. إلا أن الإنجيل العبري عبارة عن مجموعة من الأسفار التي تعود إلى أعمار مختلفة، وقد وردت من مصادر متعددة وتيارات متمايزة في الرواية، امتدت كتابتها على مدى ما يقرب من ألف وثمانمئة سنة دون أن يُعرف واضعوها الأصليون على الغالب، وهم على أي حال، ليسوا أولئك الذين وضعت أسماؤهم على هذه الأسفار.

وحتى إذا لم نأخذ بعين الاعتبار أن الكنائس المسيحية قد عدّلت في التقسيم اليهودي للعهد القديم، وأضافت إليه العهد الجديد بأسفاره السبعة والعشرين، فإننا لابد أن نصل إلى القناعة بأن هناك كتباً عديدة بمضامين مختلفة تدّعي كلها اسم "الإنجيل". ولا عجب بعد ذلك إذا عرفنا أنه لم يكن مسموحاً لأتباع الكنيسة الكاثوليكية حتى سنة 1965، بقراءة نسخة غير النسخة الكاثوليكية من الإنجيل.

وبالإضافة إلى العهد القديم فإن العهد الجديد أيضاً يشكل قاعدة الديانة المسيحية. وهذا العهد الجديد عبارة عن سبعة وعشرين سِفراً، وضعها مؤلفون متعددون، وفي أزمنة مختلفة وقد وضعَت فيما بين سنة خمسين وسنة مئة وثلاثين بعد السيد المسيح، ولم تتوافق الكنائس على هذا القانون الديني إلا في النصف الثاني من القرن

الرابع الميلادي. وجدير بالذكر أن هذه الأسفار لم توضع بلغة السيد المسيح الآرامية وإنما باللغة اليونانية. ويحاول رجال الدين المسيحي تفسير ذلك بأنه أخذ عن مجموعة من أحاديث السيد المسيح فقدت ولم تصل إلينا.

أما اليوم فلا يشك الباحثون المسيحيون في الإنجيل أن أيّاً من الأناجيل الأربعة، أو من الرسائل الكاثوليكية، أو حتى سفر الرؤيا هي من تأليف أولئك الذين تحمل أسماءَهم ولم يكن أي أحد من المؤلفين المجهولين من حواريي السيد المسيح. وعلى أي حال فإن أقدم أسفار العهد الجديد والوحيد الموثوق به يعود إلى بولس الرسول. وحتى بولس لم يتكلم مع السيد المسيح ولم يَرَه.

وهكذا يدرك المرء أن القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الفريد والموثوق بصحته دون تحريف أو تعديل، إنه كتاب لا مثيل له من نوعه.

- نزل القرآن في وضح النهار جلياً لكل الناس في القرن السابع.
- تم تدوينه حال نزوله.
- لم يكن للقرآن مؤلفون عديدون أو ربما غير معروفين، بل هبط كله وأُبلغ لشخص واحد هو محمد ﷺ، والذي كانت معالم حياته معروفة بأكملها للناس.
- لا يزال موجوداً باللغة التي أُنْزِل بها على محمد ﷺ.
- لم يضع منه شيء حتى الآن بل بقي على نصِّه الأول.

القرآن ، وحيٌ وتنزيل

حينما تطلق القداسة على كتاب ما، فهذا يعني أن مصدره وراء الطبيعة، آت من عالم لا يدخل الشك إليه، وتفترض طاعته التامة. وبهذه الرؤية لا يمكن اعتبار أي كتاب آخر غير القرآن الكريم، كتاباً مقدساً، فالإسلام هو المجتمع الديني الأوحد الذي يرى في «وثيقة تأسيسه» ـ كتابه الأقدس ـ وحياً شفوياً هبط على محمد جملة جملة وكلمة كلمة، فهو كلام الله، وهو تنزيل من الله تعالى على رسوله. أما كل الكتب الأخرى التي تسمى مقدسة، فلم تعد تعتبر اليوم حتى من أتباعها، باستثناء أقلية قليلة من اليهود والمسيحيين الأصوليين، أنها كلام الله تعالى المباشر إلى أبنائه، وإنما حكمة فقط. بين الإلهام والوحي فرق كبير، فالإنسان الملهم هو مثلاً شخص مثل ألبرت أينشتاين الذي كانت تأتيه الأفكار الصحيحة حتى وهو في شبابه دون أن يدري مصدراً لها، أما الوحي فهو اتصال مباشر أو غير مباشر يتضح فيه أن الله تعالى هو المصدر.

إن الاعتراف بأن القرآن هو كلام الله، أمر ملزم بالنسبة للمسلم، ومن لا يعتقد ذلك لا يكون مسلماً. وتسمية المسلمين بـ «الأصوليين» لمجرد أنهم كـ «إسلاميين» ينشطون في العمل السياسي، أمر مضلل. لأننا إذا أخذنا كلمة «الأصولية» بتعريفها المبدئي والأساسي، نجد أنها تعني الالتزام والإيمان بالكتاب المقدس، ومن هنا، وبهذا المفهوم، فإن كل المسلمين الحقيقيين بالضرورة أصوليون.

نشوء القرآن

«القرآن في نفس الوقت آخر كتاب قديم وأول كتاب عصري»

(باول شفار تسيناو)

كيف ابتدأ الوحي:

في أواخر شهر رمضان من سنة 610م، وكان قد بلغ الأربعين من عمره الشريف، خرج محمد ﷺ إلى غار حراء الواقع في جبل النور، على بعد حوالي خمسة كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من مكة، ذلك المكان الحبيب إليه، والذي اعتاد أن يخلوَ فيه إلى نفسه يتأمل ويعبد ربه. وفي إغفاءة قصيرة جاءته الرؤيا: الملاك جبريل يقول له: «إقرأ!» فيجيب محمد ﷺ: «ما أنا بقارئ» فيحتضنه الملاك ويعتصره حتى ليكاد يفقد حواسه ويعيد عليه أمر القراءة. فعل جبريل ذلك ثلاثاً ثم قال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: 1-5].

في «ليلة القدر» هذه في الخامس والعشرين أو السابع والعشرين أو التاسع والعشرين من شهر رمضان كانت بداية تنزيل القرآن، تلك المعجزة التي أصبحت أساساً للدين الإسلامي.

عاد محمد ﷺ إلى زوجته خديجة مضطرباً مرتجفاً وقال: «غطيني! غطيني!». وحينما استعاد رباطة جأشه خاف على صوابه.

لم يستطع آنذاك أن يتصور أنه قد اختير ليتلقى وحياً سماوياً، أو أنه أهل لذلك.

وحينما مرت ثلاثة أعوام على ذلك دون أن يتلقى محمد ﷺ وحياً إلهياً آخر، زادت شكوكه حتى غدت غير محتملة، وظن أن الوحي قد انقطع. ولكنه ما لبث أن سمع جبريل يقول:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل: 5].

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: 2].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: 1-3].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: 1-7].

بعد ذلك وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة كان محمد ﷺ يتلقى الوحي حتى قبيل لقائه وجه ربّه سنة 632م. في تلك الأثناء أصبح محمد نبياً ورجل دولة، وجمع ما نزل إليه من الوحي ليصبح قرآناً يهدي به أتباعه.

كان الوحي ينزل على النبي في أشكال متعددة: في يقظته وفي منامه كرؤيا حقيقية، في راحته أو حتى في سفره. ولم يظهر له جبريل إلا مرتين في صورة من نور. وقد وصف محمد ﷺ ذلك وقال:

«كان يصل إلي على شكل دقات الأجراس، وكان ذلك صعباً عليّ. وحين يغادر كنت أحفظ كل ما أتى به». ومن الواضح أن محمداً ﷺ كان يأتيه ﴿قَوْلاً ثقيلاً﴾ [المزمل: 5] يضعه خارج نطاق نفسه. وقد لاحظت زوجته عائشة أن محمداً ﷺ كان يتصبب عرقاً أثناء هبوط الوحي عليه حتى ولو كان ذلك في أيام البرد القارس.

وفي سنة 621 م عاش محمد ﷺ رؤيا حقيقية، إذ أُسرِي به ليلاً إلى القدس، ومن ثم عرج من هناك إلى السماء. ويصف القرآن الإسراء والمعراج (الإسراء1 و 60 والنجم 1-18) بشكل مؤثر ويعتبر أن النبي كان في رحلة الوحي هذه خارج حواسه المادية مع أنه كان بكامل قواه العقلية وكان مأخوذاً ومنبهراً مع أنه كان يرى ويلاحظ كل شيء بانتباه:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: 1-18].

من الضروري أن نذكر أنّ الصور القرآنية والأوصاف الواردة بكل تفاصيلها في المأثور الإسلامي تؤكد قبل كل شيء على أن:

- محمداً ﷺ فوجئ واضطرب عند أول نزول الوحي عليه، ولم يكن قد خطط مسبقاً لمسيرة نبوية.

- الوحي لم يكن مرتبطاً بأي عارض مرضي لدى محمد ﷺ كالصرع أو ازدواج الشخصية، إذ إن محمداً ﷺ كان يتمتع بكامل صحته العقلية والجسدية.

- ظاهرة الوحي بحد ذاتها لم تكن بصرية، وإنما كانت ظاهرة سمعية، فمحمد ﷺ من الأنبياء «السمعيين».

- محمداً ﷺ كان أمياً، وبالتالي لم يكن قادراً على الاستفادة سراً من كتب دينية سابقة.

- وأخيراً على أن محمداً ﷺ لم يكن شاعراً ولا كاهناً بل كان معروفاً بالتجارة فقط.

وترسم الآيات التالية صورة شاملة للنبوة، وقد كان محمد ﷺ نبياً مُرسلاً:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 51-53].

من كان محمد؟

لم يبق لنا الكثير من المعلومات الموثقة عن حياة محمد ﷺ قبل بعثته، مع أن هذه الفترة دامت قرابة ثُلُثَي حياته الشريفة. إلا أنه بعد بعثته وبداية هبوط الوحي عليه أصبح شخصيةً مرموقة في عصره، وبقيت لنا حتى الآن كل شاردة من أخباره صغيرة أو كبيرة.

ينتسب محمد ﷺ إلى قبيلة قريش التي أتت من جنوبي شبه الجزيرة العربية لتستوطن في مكة، وكان من وسطها في بني هاشم. ومنذ أيام جده عبد المطلب كانت عائلته مسؤولة عن سقاية الحجيج من بئر زمزم، ورعاية الكعبة (البيت الحرام) فيما قبل الإسلام، إذ كانت الكعبة آنذاك أيضاً محجاً لعبدة الأوثان.

وُلد محمد ﷺ سنة 569 أو سنة 570 للميلاد بعد وفاة والده عبد الله. وحينما بلغ الرابعة من عمره، أمضى بعض الوقت، كما كانت العادة آنذاك، في البادية وفي مضارب قبيلة بني سعد، حيث رعته هناك امرأة يقال لها حليمة. أما أمه آمنة فقد ماتت عندما كان عمره ست سنوات، وفقد جدّه كذلك وهو بعدُ لم يتجاوز الثامنة. بعد ذلك كفله عمه أبو طالب ذو النفوذ الواسع، وهو أبو الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب. وهكذا احتضنه عمه يتيماً، وصار يأخذه معه في قوافله التجارية، حيث وصل في بعضها إلى سوريا، وتعلّم منه مهنة التجارة. لم يلفت محمد ﷺ النظر بمهاراته التجارية، وإنما كان عَلَماً بأخلاقه وسلوكه، فقد كان محمد ﷺ نقيَّ القلب، نظيف النفس،

مستقيماً صادقاً ووفياً، حتى عُرف بالأمين. وقد ظهر هذا الاحترام لشخصه الكريم حينما أصاب الكعبة سنة 594 بعض التلف نتيجة الأمطار الشديدة آنذاك، واتفق وجهاء القوم المتنافسون على إعادة الحجر الأسود إلى مكانه بعد ترميم الكعبة، على التنازل عن هذا العمل الشريف لمحمد الأمين ﷺ.

لقد كان محمد ﷺ فقيراً في أسرته حتى إنه لم يكن يستطيع التفكير بالزواج. ولكن ما لبثت خديجة بنت خويلد، صاحبة تجارة كبرى، وكان محمد قد بدأ بالعمل لديها منذ فترة، أن طلبت يده للزواج سنة 595 (وليس العكس). كانت قد ترمّلت مرتين قبل ذلك، كما كانت تكبره بحوالي خمسة عشر عاماً. وقد عاش معها محمد ﷺ بعد ذلك كزوج وشريك في التجارة، قرابة خمسة وعشرين عاماً من زواجٍ سعيدٍ للغاية لم تشبه شائبة حتى وفاتها سنة 619. ورزق الزوجان بستة أطفال، كانت من بينهم فاطمة التي تزوجها علي، وكانت الأم الأولى لكل آلِ النبي، أما أبناؤه فقد عاجلهم الموت في سن مبكرة.

كانت خديجة الإنسان الأول الذي أسلم وآمن برسالة محمد الإلهية، قبل ابن عمه علي وصديقه أبي بكر الذي كان بعد ذلك أول خليفة له. إلا أن دائرة هؤلاء المسلمين الأُوَل لم تتسع إلا ببطء شديد وخاصة لدى الطبقات الفقيرة والمظلومة في مكة. وقد كان منهم العبد الأسود بلال الحبشي، الذي أصبح أول مؤذن في الإسلام. كانت جماعة المسلمين الأُوَل تجتمع سراً في دار الأرقم التي لا تبعد كثيراً عن المسجد الكبير حالياً. وقد بدأ محمد ﷺ سنة 613 بالدعوة إلى

الإسلام علناً، حيث بدأ هذا الدين ينمو رويداً رويداً حتى أصبح في فترته المكيّة ديناً استطاع أن يضع كل الأديان الأخرى موضع الشك والارتياب من خلال مبادئه الأساسية التالية:

- مبدأ التوحيد وهو المبدأ الشرعي الأساسي في الإسلام، والذي ينص على أنه لا إله إلا الله الباطن المتعالي يحيط ولا يحاط به.
- الله هو اللطيف المنّان (وهذا تصور غريب عند العرب)
- ليس لله أبناء أو بنات، وإنما هناك الملائكة والجن.
- هناك حياة بعد الموت في الجنة أو في جهنم (وهذا تصور جديد عند العرب)
- سلوك المرء في حياته الأرضية يحدد قدره في الآخرة (كان العرب يميلون إلى التسليم بالقدر).
- كلٌّ مسؤول عن نفسه (أما لدى القبائل العربية فالسائد أن كل واحد مسؤول عن قبيلته كلها).
- ما خلق الله الناس إلا ليعرفوه ويحمدوه.
- محمد رسول ونذير.
- جاء محمد ﷺ ليكمل رسالة إبراهيم التوحيدية، ويصلح ما طرأ عليها لا ليؤسس لدين جديد.

هذه كانت التعليمات والتوجيهات الدينية التي تميز بها «الإسلام في مكة»، والتي استكملت في المدينة بعد ذلك بالانتقاد الواقعي لليهودية (إنكار امتياز الشعب المختار) وللمسيحية (نفي الخطيئة

الأصلية، وكذلك نفي صلب السيد المسيح من أجل خلاص البشرية، ونفي طبيعته الإلهية، ونفي الثالوث المقدس) بالإضافة إلى القواعد التوجيهية العديدة في سلوك المجتمعات الإنسانية (الطقوس، الحقوق العائلية، وقانون الإرث والاقتصاد والجزاء).

مما يلفت النظر أن اليهودية والمسيحية العربيتين لم تكونا في يوم من الأيام مصدر خوف لأهالي مكة الوثنيين، أو مبعث تهديد لهم في قِيَمهم وأسلوب حياتهم. لكن الأمر اختلف بعد مجيء رسالة محمد ﷺ. ولم يطل الزمن حتى أصبحت الإهانات والشتائم والقذف والتشنيع، وأخيراً العداوات العنفية مظهراً لعداء أهل مكة للرسول ودعوته. وراحوا ينعتون النبي الكريم بالكذب والاحتيال، ويتهمونه بمحاولة تهديم مجتمعاتهم والإساءة إلى أوثانهم وديانة آبائهم. ولم يخش وجهاء مكة فقط فقدان سلطتهم بسبب هؤلاء المسلمين الثائرين، وإنما خافوا أيضاً تراجع وفود الحجيج الوثنيين نظراً لعدم قبول هؤلاء المسلمين بوجود الأوثان في الكعبة، ولأن رفاه مكة ورخاءها كان يعود بالدرجة الأولى إلى هذا الحجيج.

وكان من أبرز من عادى أوائل المسلمين الأمويون من قريش وفي مقدمتهم أبو سفيان، بالإضافة إلى أبي جهل وأبي لهب الذي نزل الوحي بسورة في ذمه (سورة المسد) وقد سامَ هؤلاء العتاة أوائل المسلمين أشد أنواع العذاب والإهانة، حتى إن محمداً ﷺ سمح سنة 665م لأغلبية هؤلاء المسلمين بالهجرة والالتجاء مؤقتاً إلى نجاشي الحبشة المسيحي. وقد استجاب لنصيحة الرسول بالهجرة آنذاك تسعة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة.

وقد منع الرسول أتباعه في مكة أن يقاوموا الظلم والعذاب بالقوة والعنف، حتى ولو كان الدفاع عن النفس مبرراً لذلك. فقد كان شعارهم آنذاك: الصبرَ، الصبرَ، الصبرَ ولا مقاومة!

واستطاع محمد ﷺ أن يقاوم سياسة العصا والجزرة، التي استخدمها معه أهل مكة. هذه السياسة التي امتدت من عَرضِهم عليه تنصيبَه ملكاً عليهم مقابل التنازل عن دعوته، ووصلت إلى مقاطعته اقتصادياً وحصاره في أعوام 606-619م ومحاولة قتله.

ولكن ما إن توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة سنة 619م حتى رأى محمد ﷺ أن لا مقام له ولأتباعه في مكة بعد ذلك.

كان في يثرب، التي أصبحت بعد ذلك المدينة المنورة، سنة 622م اثنان وسبعون مسلماً، وكانوا يمتلكون نسخة عما أنزل من آي القرآن حتى ذلك الوقت، وقد عرض مسلمو يثرب على مسلمي مكة سنة 621 و622م عند العقبة، الهجرة إلى مدينتهم. وهاجر إثر ذلك حوالي سبعين مسلماً في مجموعات صغيرة من مكة إلى مهجرهم في المدينة وسموا المهاجرين. وكان آخر من هاجر محمد ﷺ وكان أبو بكر بصحبته. ونظراً للأهمية التاريخية العالمية لهذه الحادثة التي تفصل بين مرحلتين أساسيتين في الإسلام، ابتدأ التقويم الإسلامي مع السنة التي تمت فيها هجرة الرسول الكريم إلى المدينة، ومنذ ذلك الوقت يسمى هذا التقويم «التقويم الهجري».

وقد آخى النبي عند وصوله إلى المدينة بين عائلة من المهاجرين وعائلة من الأنصار، كما وضع نصاً لمعاهدة وحّدت بين القبائل العربية واليهودية في تلك الواحة الكبيرة حول المدينة. أما هو فقد أصبح رئيس هذه المدينة (الدولة الجديدة) و ابتدأ الوحي يتكلم عن «الطاعة لله ورُسُله». (راجع: الأنفال 46 ومحمد 33)

لم يتحقق الأمل بإدخال القبائل اليهودية التي كانت في المدينة في الإسلام، وكذلك لم يتحقق الأمل ببقائها على الحياد في النزاع مع أهل مكة. وهكذا أدى تعاونهم مع أعداء الإسلام في مكة إلى تشريدهم لاحقاً من المدينة.

وبعد قدومه إلى المدينة تزوج محمد ﷺ من عائشة، الفتاة الشابة الذكية وابنة أبي بكر أقرب أصحابه إليه. كذلك تزوج لاحقاً من عدة نساء من أسر مرموقة، وكان الهدف الأول من هذه الزيجات عقد الاتفاقات وتثبيت الصداقات، وتعميق أسس دولته الحديثة.

أما مكة فقد رأت في تطور الإسلام وتثبيت دعائمه في المدينة خطراً متنامياً على مركزها العقائدي والاقتصادي في شبه الجزيرة العربية، وحاول المكّيون مرات عديدة التخلص عسكرياً من موضوع محمد ﷺ. ولذلك كان أهل المدينة من المسلمين في وضع دفاعي تكتيكي واستراتيجي دائم. وفي هذه الأجواء سمح الرسول لأنصاره، بناءً على ما أنزل عليه من آي القرآن، بالدفاع المسلح وهكذا أصبح شعار المسلمين: الصبر والدفاع.

كانت أول معركة قتالية في شهر رمضان من عام 624م، وقد شارك فيها 324 مسلماً بينهم 86 من المهاجرين ضد 950 من المكيين، في موقع بدر، وانتهت بانتصار مثير للمسلمين. تبع هذه الغزوة غزوتان أخريان حاصر فيهما المكيون المسلمين، وكانت أولاهما عند جبل أُحُد سنة 625م حيث قابل سبعمئة مسلم ثلاثة آلاف من المشركين، ثم كانت غزوة الخندق سنة 627م واستطاع ألف وخمسمئة مسلم أن يصدوا عدوان عشرة آلاف مشرك ويلحقوا بهم، رغم كثرتهم، هزيمة نكراء دمرت معنويات المكيين.

ونظراً لهذا التحول الواضح في ميازين القوى لصالح أهل المدينة، استطاع محمد ﷺ أن يتجرأ للذهاب إلى مكة مع ألف وأربعمئة من المسلمين لأداء العمرة، كان ذلك تصرفاً رائعاً وذكياً ألقى الرعب في نفوس أهل مكة، وقاد لاحقاً إلى صلح الحديبية قرب مكة، والذي كان بمنزلة استسلام مسبق لمكة، مسقط رأس الرسول. وتم الاتفاق في هذا الصلح على عدول المسلمين في هذا العام عن العمرة على أن يفتح أهل مكة أبوابها للحجاج المسلمين في العام التالي. وهكذا شارك ألفان من المسلمين في رحلة الحج التي جرت سنة 629م.

وهكذا انتهت فترة الحروب، وتمكن محمد ﷺ أن يدخل مكة سلماً سنة 630، ودخلت مكة كلها وزعامتها التي كانت ملتفة حول أبي سفيان، في الإسلام بما يشبه الاستفتاء العام الصامت. وهكذا تحررت الكعبة من الأصنام الثلاثمئة والستين التي كانت فيها، وعادت دار عبادة للدين التوحيدي كما كانت على أيام إبراهيم، وأصبحت قبلة للمسلمين في كل مكان ومركزاً جغرافياً لبلاد الإسلام.

كان الرسول قد بدأ قبل ذلك يدعو لشمولية الإسلام وتوجهه إلى كل بني البشر بما يمكن أن نسميه اليوم عولمة الإسلام.

فقد توجه سنة 628 إلى كل زعماء الدول المجاورة يدعوهم إلى دخول الإسلام. فأرسل وفوداً تحمل رسائل إلى كل من القيصر هرقل في بيزنطة، وإلى الشاه الفارسي كسرى الثاني، وإلى الزعيم الروحي لأقباط مصر ، المقوقس في الاسكندرية. وقد حفظت نصوص هذه الرسائل، فالرسالة الموجهة إلى المقوقس مكتوبة على جلد ومحفوظة في متحف تويكابي في إستامبول.

وفي سنة 632 حج محمد ﷺ حِجَّته الوحيدة، وعلّم الناس فيها طقوس الحج كما يجب أن يحافظ عليها المسلمون في كل الأوقات من بعده، وقد سمّيت تلك الحجة حجة الوداع لأن الرسول توفي بعدها بثلاثة أشهر. كما شارك في حجة الوداع هذه، التي تُعَدُّ حدثاً ذا أهمية كبرى، حوالي مئة وأربعين ألف مسلم. وقد خطب الرسول في الناس على جبل عرفة خطبة مؤثرة، دعاهم فيها إلى الرفق بنسائهم، وأشهد الخلق على أنه أكمل لهم دينهم وأتم رسالته. وقد نزل الوحي عليه بأنه خاتم النبيين وأن الإسلام هو الدين الذي يرضى الله به ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ [المائدة: 3].

مات محمد بين ذراعي زوجته عائشة في الثامن من شهر حزيران سنة 632 في المدينة ودُفن في بيتها. وقد أصبحت روضته الشريفة جزءاً من المسجد الكبير في المدينة اليوم، كما أدخلت ضمن حرم المسجد بحيث لا يقف المصلون باتجاهها لأنه: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ [الكهف: 110] [فصلت: 6].

محمد في القرآن:

لم يكن محمد ﷺ مؤلفاً للقرآن وإنما ناقلاً ومبلّغاً له. وليس هذا الكتاب سيرة لحياة الرسول، إلا أن من يعرف حياته يمكن أن يجد في القرآن بعض الأدلّة والأسناد. ولكن من لا يعرف حياته لا يستطيع أن يستنبط مسارها من القرآن. ولم يُذكر من معاصريه في القرآن غير أبي لهب وزيد، ومن الأماكن التي عاش ودعا فيها إلى الإسلام بكة (مكة) ويثرب (المدينة) وعرفات وبدر والحِجر وحنين.

لقد سمى المسلمون بعد محمد ﷺ السورة السابعة والأربعين «سورة محمد» إلا أنه لم يذكر باسمه في القرآن إلا أربع مرات، ولكن الله كان يتوجه إلى محمد ﷺ بخطاب غير مباشر في كل القرآن، وغالباً بالطلب إليه: «قُل...». كما سماه القرآن «الرسول» و «النذيرَ».

لقد أوضح القرآن بكل جلاء أن محمداً ﷺ:

- بشر عادي يأكل ويشرب "ويمشي في الأسواق".
- لم يكن شاعراً ولا كاهناً وإنما كان:

﴿رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40] في إطار التاريخ اليهودي المسيحي.

- لم يكن قادراً على اجتراح المعجزات.
- كان رسول الله يوصل الرسالة يبلغها ولا يفرضها على أحد.

لم يكن ذكر محمد ﷺ في القرآن يعبر عن مجاملة له. فقد عوتب عدة مرات منها في الآية الأولى من سورة التحريم (1): ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ**﴾. وفي سورة الكهف (23-24) ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾. أما سورة عبس فتتضمن أقسى عتاب لمحمد ﷺ لأنه ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾**﴾ [عبس: 1-2].

حينما كان في حديث مع أحد وجهاء مكة:

﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾**﴾ [عبس: 3-11].

وهناك نقد رابع لمحمد ﷺ ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ**﴾ [الرعد: 37]. سنعود إلى ذكره عندما نتكلم عن «الآيات الشيطانية».

لا نرى في الكتب السماوية الأخرى نقداً لتصرف خاطئ لنبي، حتى ولو كان فشلاً ذريعاً كما يُحكى عن داوود على سبيل المثال. أما احتواء القرآن على نقد لمحمد ﷺ فهو دليل على أن هذا الكتاب ليس من تأليف محمد ﷺ، وإنما كان يحترم نصوصه على أنها كلمة الله.

جمع القرآن

القرآن في أيام الرسول:

لم تكن الكتابة معروفة في مكة أيام إقامة الرسول فيها، بل كان النقل الشفوي هو الأسلوب المسيطر والمتبع في نقل الكلام والأخبار. فقد اخترعت الكتابة العربية في الفترة التي كان فيها الرسول لا يزال في أوائل حياته. وقد تم ذلك في الأنبار إلى الشمال الغربي من موقع بغداد حالياً، من قبل ثلاثة أشخاص هم: مورواميت بن مروة، وأسلم بن سيدرة وأمير بن حيدرة. وكما يقول ابن النديم في كتابه (الفهرست) فقد اشتقت هذه الكتابة من الكتابة النبطية ومن الكتابة الحميرية في اليمن، مع أن التشابه ليس واضحاً للعيان. وحينما باشر محمد ﷺ دعوته لم يكن في مكة مدرسة ولا كتاب، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا سبعة عشر شخصاً من معاصريه. وبعد مئة عام من ذلك أصبحت الأمة الإسلامية بفضل القرآن، أكثر مجتمع ديني يجيد القراءة والكتابة في العالم أجمع.

لا نعتقد أن إمكانية الحفظ عن ظهر قلب في هذه الأيام متوفرة كما كانت عليه في تلك الأيام. لقد كان العرب يحفظون نصوصاً كاملة وقصائد طويلة وأهازيج كثيرة ولا ينسونها. كما كان أولاً في مكة ولاحقاً في المدينة، العديد من المسلمين الذين يحفظون ما يهبط به الوحي من آيات القرآن، ولم يكن أحد يستطيع أن يضيف عليه شيئاً من عنده، نظراً لشروط الرقابة الاجتماعية المتبادلة في تلك الظروف.

وكان الوحي كلما نزل حديثَ المدينة كلها وخاصة عندما كان الوحي يتعلق بما له تأثير فوري وعميق على الحياة الاجتماعية كتحريم الخمر مثلاً. كما كان محمد ﷺ يطلع الرجال المجتمعين كل مرة على ما ينزل عليه ليجمع بعد ذلك النساء المسلمات ويطلعهن على ما نزل. وجرت العادة إذا أخطأ إمام في مكة أو المدينة بقراءة بعض آيات القرآن ـ وكما لا يزال ذلك حتى الآن ـ أن يقاطعه أحد المصلين بصوت عالٍ ويقول: الحمد لله، ويصحح له خطأه بعد ذلك.

وقد سهّل الحفظ غيباً على المسلمين حاجتهم لقراءة بعض آيات القرآن في صلواتهم، بالإضافة إلى ما استنّهُ الرسول من قراءة القرآن بأكمله في شهر رمضان. وقد ختم هو نفسه القرآن في شهر رمضان من عام وفاته مرتين.

كذلك ضمِن الرسول تثبيت القرآن كتابة قبل وفاته، واستحضرت الأدوات اللازمة لذلك من الخشب والجلد وسعف النخيل والخوص والأحجار الرقيقة وعظام الأكتاف، لأن الورق لم يكن معروفاً بعد. وكلف بالكتابة ما يزيد على عشرين شخصاً أسماهم كُتّاب الوحي. وكان أشهرهم وأهمهم زيد بن ثابت الذي كان كاتب النبي. وكان الرسول كلما نزل عليه الوحي أمر هؤلاء الكتبة بكتابته في الموضوع الذي يخصصه لهم ضمن سياق النص الذي سبق نزوله. وهكذا لم يكن يضع ما ينزل في إحدى السور فقط، وإنما كان يضعها في موقعها ضمن السورة الواحدة. لذلك جمع القرآن على صحائف مفردة لتسهل إضافة ما ينزل لاحقاً في المكان المراد، وسمي «المصحف» ولكنه سمي أيضاً لاحقاً في نفس هذه المرحلة «الكتاب».

وهكذا استطاع الرسول سنة 622 أن يعطي ممثلاً للمجتمع المسلم الحديث في المدينة، وهو من بني زُرَيق، مجموعة مبدئية من آيات القرآن التي كانت قد نزلت حتى ذلك الوقت.

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك نسخ غير كاملة من القرآن، كان يكتبها بعض المسلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة للعودة إليها عند الحاجة، وعندما لا تسعفهم الذاكرة. ونشير في هذه المناسبة إلى أن عمر بن الخطاب الذي أصبح لاحقاً الخليفة الثاني، أعلن إسلامه بعدما قرأ الآيات الثماني الأولى من سورة طه عند أخته فاطمة التي سبقته إلى الإسلام.

الصيغة الأساسية للقرآن

لم يوثق القرآن وتستقر صيغته الأساسية والنهائية إلا بعد انتهاء نزول الوحي ووفاة الرسول. وكان في المدينة في ذلك الوقت العديد من المهاجرين، الذين كانوا يحفظون القرآن غيباً، وكان ثمانية منهم معروفين بشكل خاص «بالمساعدين» وكان من بينهم امرأة تدعى أم ورقة.

سرعان ما تبينت ضرورة توثيق القرآن بنص أساسي، لأن «الحفّاظ» كانوا يقتلون في المعارك أو يموتون. وهكذا دعا الخليفة الأول أبو بكر، بناء على نصيحة وحضٍّ من عمر، بعد ستة أشهر من وفاة محمد ﷺ، كل المسلمين في المدينة أن يحضروا ما عندهم من نصوص قرآنية مكتوبة، ويقسموا بالله أنهم قرؤوها على الرسول وصادق عليها.

وكُلف بعد ذلك كاتب النبي زيد بن ثابت بجمع القرآن في نص متكامل ونهائي. وقد قام زيد، وهو المقدم على كل الحفاظ، بهذه المهمة بأكبر ما يمكن من المسؤولية والضمير، بعد ما استمع إلى كل من كان موجوداً ممن يحفظ القرآن أو أجزاء منه، واطلع بنفسه على كل التسجيلات الكتابية المتوفرة، وقارنها مع محفوظاته والوثائق الأخرى المتوفرة لديه. ومن الجدير بالذكر أنه لم يوجد أي خلاف فيما رُوِيَ من القرآن. وقد عمل زيد بمنهجية دقيقة، فلم يثبت إلا الآيات التي سمعها شاهدان اثنان بالإضافة إليه نفسه، والآيات التي كتبت في حضور الرسول وصادق عليها هو بنفسه، بالإضافة إلى الآيات التي حفظها الراوي وتعلّمها من الرسول مباشرة. وبعد كل ذلك لم يكن زيد يكتفي بتثبيت آية يحفظها إذا لم يبحث عنها عند غيره ويجد البرهان على صحتها.

بقيت هذه النسخة الأساسية الموثقة والصحيحة الكاملة من القرآن عند الخليفة الأول أبي بكر حتى وفاته سنة 634، وبعد ذلك عند الخليفة الثاني عمر حتى وفاته سنة 644، حيث ورثتها عنه ابنته حفصة التي كانت زوجة الرسول، وكانت هي نفسها أيضاً «حافظة» للقرآن.

أما في عهد الخليفة الثالث عثمان (644-655) فقد امتدت الدولة الإسلامية من شمال إفريقية حتى أفغانستان. لذلك كان من الضروري تزويد المناطق البعيدة بنسخ أصلية من مصحف أبي بكر. لذلك أمر الخليفة سنة 650 ـ بعد وفاة الرسول بثماني عشرة سنة فقط ـ بكتابة نسخ عن نسخة المصحف المحفوظة عند حفصة. ومن حسن حظ

عثمان أن كاتب النبي وجامع النسخة الأصلية للقرآن، زيد بن ثابت، كان لا يزال حياً، وكلفه عثمان بالإشراف على النسخ الجديدة. إلا أن عثمان وجّه زيداً الأنصاري بالالتزام بلغة قريش كتابة وقراءة عند اختلاف اللهجات العربية في الرواية. وكانت نتيجة هذا العمل الكتاب الأول المكتوب باللغة العربية، ألا وهو القرآن بنسخته الأساسية.

لقد أرسلت خمس نسخ على الأقل إلى المدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق. واحتفظ عثمان بنسخته التي سميت مصحف الإمام، والتي ابتلّت بدمه حين قتل وهو يقرأ القرآن.

ومع إرسال النسخ الرسمية إلى الأمصار أمر عثمان بجمع كل نسخ القرآن الخاصة، كاملة كانت أو مجتزأة، وأمر بحرقها ولكن يعتقد أنه بقيت بعض النسخ.

أما نسخة المدينة فهي محفوظة اليوم في طشقند، وهناك نسخة أصلية أخرى وهي مخطوط عثمان الملّوث بدمه لا تزال هي الأخرى محفوظة في متحف توبكابي في استامبول. ويعتقد أن نسخة أصلية ثالثة أو على الأقل النسخة الأولى عنها، هي المحفوظة الآن في أرشيف مكتب الهند البريطاني. وهذه النسخ الثلاث مكتوبة على رَقٍّ من جلد حيواني رقيق وعلى الجهتين، كما أنها من "نوعية إيقونية" كما وصفها مارتين لينغر.

وتعود كل نسخ القرآن المطبوعة حالياً في سلسلة طويلة إلى نسخ مصدّقة عن مصاحف الرسم العثماني.

وهكذا يمكن التأكد من أن النص القرآني لم يطرأ عليه أي تعديل أو تغيير أو إضافة أو نقصان منذ عهد محمد ﷺ حتى الآن. وهذا ما لا يمكن قوله عن أي كتاب مقدس آخر، إذ كيفَ يمكن إثبات ذلك! كذلك فإن الاختصاصيين الغربيين في العلوم الإسلامية يعتقدون بالإجماع تقريباً، بصحة النصوص القرآنية الحالية وتطابقها مع النص الأصلي الأول. ويمكن القول أنْ لا أحد يستطيع الآن التشكيك بصحة الأصل التاريخي لمحتوى الرسالة القرآنية، وإنما ينحصر ذلك بمصدره السماوي.

آيات مفقودة؟

شكوك شيعية:

حصلت في سياق التاريخ الإسلامي خلافات كثيرة بين الأكثرية المسلمة السنية والأقلية المسلمة الشيعية، والتي تعيش غالبيتها في إيران اليوم، كانت في جزء منها دموية. وفي سياق هذه الخلافات كان بعض المتطرفين الشيعة يعبرون عن شكوكهم في أن النص القرآني وصل كاملاً، بل يعتقدون أن هناك بعض الآيات التي أخفيت لأنها كانت تؤكد على أفضلية عليّ بين الصحابة وأحقيته في خلافة الرسول. وقد سرت شائعات في القرن العاشر في العالم الشيعي أن فاطمة ابنة الرسول وزوجة علي، كانت تملك قرآناً أطول بحوالي ثلاثة أضعاف من القرآن الحالي ويحوي حوالي سبعة عشر ألف آية.

وينفي تلك الشكوك على وجه خاص أنّ عليّاً:

- كان من اللجنة الصحابية التي أشرفت على جمع نصوص القرآن في عهد أبي بكر، وأيضاً ممن أشرف على نسخها في عهد عثمان.
- وأنه كان يستطيع عندما أصبح الخليفة الرابع، أن يجري بعض التصحيح على نصوص القرآن. وبما أنه لم يفعل ذلك، فهذا دليل على قناعته بصحة الرسم القرآني الذي تم في عهد أبي بكر وعهد عثمان.

وينطلق علماء الشيعة اليوم من أن القرآن بالرسم العثماني نص أصلي صحيح، وهذا ما تتوافق عليه أهم شروح القرآن الشيعية في العصر الحديث. وهكذا لانرى أي فروقات على الإطلاق بين نسخ المصحف المستخدمة لدى السنة وتلك الموجودة لدى الشيعة. وكذلك يقبل الشيعة النسخ المطبوعة في القاهرة «السنية» من المصحف الشريف.

إلا أن قبول النص القرآني من قبل الشيعة لا يمنع من أن مفسريهم يرون تكريم آل البيت وأفضلية عليّ، مثبتة في القرآن الكريم.

آيات شيطانيّة؟

حينما يدور الحديث عن احتمال فقدان بعض آيات القرآن الكريم، يتبادر إلى الذهن مباشرة كتاب سلمان رشدي المَعيب والمُنكر والذي أسماه «آيات شيطانية». لم يعد بإمكاننا اليوم أن نقول فيما إذا كانت هذه القصة حدثاً عابراً أو محض خرافة، خاصة وأنها لم ترد في صحيح البخاري أو صحيح مسلم، ولا في سيرة حياة محمد ﷺ لابن

اسحق/ابن هشام. إلا أن الطبري ذكر هذه القصة في كتابه «تاريخ الطبري» المكون من ثلاثة عشر مجلداً، والذي وضعه في القرن التاسع. ولكن يجدر القول إنه ذكر روايتين مختلفتين متضاربتين ونأى بنفسه عن كلتيهما.

وتقول القصة إن محمداً ﷺ كان يبحث عن طرق ووسائل ليمد الجسور بينه وبين أولئك المكيين الذين اعتبروا دينه التوحيدي ضرباً من الإلحاد والكفر بدين آبائه. وقد عرض وجهاء مكة تسليم السلطات إلى محمد ﷺ إذا أبدى تسامحاً مع آلهة مدينتهم، وهذه الآلهة المحببة إلى قلوبهم هي الآلهة المؤنثة اللات والعزّى ومناة، واللاتي كان المكيون يعتبرونهن «بنات الله» ويضعونهن في مرتبة عالية للإله الأعلى.

في ذلك الوقت نزلت على محمد ﷺ سورة النجم والتي ترد فيها الآيتان 19-20 التاليتان:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: 19-20].

وكما يروي أبو العلياء في رواية مشكوك بصحتها، أن محمداًﷺ أضاف إلى هاتين الآيتين، دون أن يلحظ أن ذلك ليس وحياً إلهياً وإنما خاطرة شيطانية، مايلي:

«وهؤلاء هن الغرانيق العظيمة التي يرجى نصرها».

ومع أن ذلك لا يعطي هؤلاء «البنات» مقاماً أرفع من مقام الملائكة أو الجن، فإن خبر هذا «الوحي المزعوم» سرعان ما انتشر بين أهل مكة لأن فيها اعترافاً بإلاهاتهم الثلاث وإضعافاً للعقيدة الإسلامية التي لا تعترف بوجود شفيع لدى الله.

وعلى أية حال لم تدخل هذه الجملة المزعومة في نص القرآن عند جمعه، بل استمرت سورة النجم بالآيات 21-23 التالية:

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ [النجم: 21-23].

وبذلك لم تفقد هؤلاء «البنات الثلاث» ـ كباقي الأوثان ـ قيمتها فقط وإنما فقدت وجودها أيضاً. وأصبح توحيد الإسلام أكثر وضوحاً وكان على المسلمين أن يبتعدوا عن الكافرين:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: 1-6].

كان محمد ﷺ تحت ضغط المكيين واضطر إلى مهادنتهم وعقد صلح معهم وهذا ما تدل عليه الآية 73 وما يليها من سورة الإسراء. ولكن محمداً ﷺ حُذِّر من الاستجابة لرغباتهم في الآية 37 من سورة الرعد:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37].

أما الآيات 44-46 من سورة الحاقّة فمضمونها لا لبسَ فيه:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ [محمد ﷺ] عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: 44-46].

وبعد هذا التنبيه والتحذير كله لم يكن محمد ﷺ ليرتضي صُلحاً واهياً أو ضعيفاً مع المشركين،خاصة وأنه قد عرف أن النبوة كلها مرتبطة بأخطار الخواطر الشيطانية:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُول وَلا نَبيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنيَّته فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاته وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴿٥٢﴾**﴾ [الحج: 52].

فإذا كانت حكاية الآيات الشيطانية قد حصلت فعلاً يمكن أن نربطها بالآية السابقة. ولكننا لا نستطيع أن نستنتج من هذه الآية أن الحكاية قد حصلت فعلاً. كذلك فإن صحة هذه الحكاية لا تتأكد مطلقاً لمجرد أن بعض المسلمين انطلقوا في كلامهم أو آرائهم من واقعية الآيات الشيطانية، لأن هؤلاء الأشخاص ربما يكونون قد انطلقوا من مصلحة عقائدية لتقديم مثال لنظريتهم من أن هناك آيات محرفة في القرآن (راجع فصل: آيات لا حاجة لها).

لم يكن لهذه الحادثة أي دور تاريخي أو دور آخر لدى المسلمين بشكل عام قبل أن يسلط سلمان رشدي الضوء على هذه "الآية" المريبة، وحتى لو أن هذه الحادثة قد حصلت فإنما تؤكد طبيعة الرسول البشرية وإنسانيته وطهارة قلبه وصفاء نفسه.

آية الرجم على رأي عمر:

ينص الإنجيل في كتاب موسى الخامس (سفر التثنية الإصحاح 20-23) على عقوبة الرجم حتى الموت بجريمة الزِنى، سواء كان الزاني والزانية متزوجين أو غير متزوجين. أما القرآن فينهى عن الزنى (الإسراء 32):

﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: 32].

ولكنه، على عكس الإنجيل، لا يرتب عقوبة الموت على هذه الجريمة بل يفرض مئة جلدة كعقوبة جسدية (النور 2):

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2].

بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن يتشدد في متطلبات إثبات واقعة الزنى قبل إيقاع العقاب:

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: 15].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: 4].

وهذا ما يجعل العقوبة الدنيوية مستحيلة في الأحوال العادية.

إلا أن الخليفة الثاني عمر، والذي عُرف عنه التزمت في الدين، كان على ما يبدو غير راضٍ، لأنه، وهو وحده، ذكر عدة مرات أن هناك آية قرآنية لم تسجل في المصحف المجموع وتنص على رجم من يقوم بالخيانة الزوجية من الأزواج البالغين (آية الرجم). ولكن الرؤية الحالية لهذه الأمور تتفق على أنه لا توجد آيات قرآنية لم تذكر ولها مضمون توجيهي.

آيات لا حاجة لها

وعد الله المسلمين بأنه سيحفظ كتابه سليماً على مدى العصور:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9].

ومع ذلك كان المسلمون الأوائل على خلاف فيما إذا كان المصحف الذي جُمع في أيام أبي بكر يحتوي على كل ما أوحي إلى محمد ﷺ من القرآن.

وكان عمر على رأس القائلين بأن الوحي القرآني كان في بعض مراحله أوسع وأشمل مما تم تثبيته، ولكنه يقول إن ما لم يذكر نُسخ بآيات أخرى. وهذا الرأي يستند إلى الآية السادسة وما بعدها من سورة الأعلى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: 6-7].

وهذا ما توضحه حقيقة أن بعض المسلمين لم يكونوا قادرين في الأعوام التي نزل الوحي فيها، على التفريق بوضوح بين ما يعلنه الرسول من آيات قرآنية أوحيت إليه، وبين ما يقوله من أحاديث نموذجية قدسية أُلهِم بها وأصبحت جزءاً من سنته.

لكننا يجب أن نناقش هنا نظرية حرجة حول ما يسمى مبدأ النسخ. وحسب هذا المبدأ هناك آيات معيارية (توجيهية) في القرآن جرى نسخ مضمونها لا نصها في وقت لاحق. وتبقى كلتا الآيتين، الناسخة والمنسوخة، ثابتتين في القرآن.

لقد نشأت هذه النظرية لأن هناك في القرآن بعض الآيات المتناقضة في ظاهرها. وتبرر هذه النظرية بأن الآيات الوصفية (الخبرية) لا تنسخ باعتبارها وحياً حول حقائق أبدية. أما الأحكام فهي قابلة للنسخ والتغيير لأن الله تعالى وضعها لتراعي تطور المجتمع الإنساني ويمكن تعديلها مع هذا التطور. وهكذا يمكن القول: إن هناك تطويراً مختلفاً تماماً في الشرائع اليهودية والمسيحية والإسلامية.

وقد وجدت في القرآن بعض الآيات مثل (النحل101) التي يبدو أنها تجيز فكرة النسخ.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: 101].

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106].

ولعل تحريم الخمر أفضل مثالٍ على التوجيه التدريجي في القرآن، لأن شرب الخمر كان عادة متأصلة في المجتمع آنذاك؛ وقد جاء ذلك على أربع مراحل:

- في سورة النحل (67) يذكر القرآن المشروبات المسكرة دون أي تقويم لها.
- وفي سورة البقرة (219) يعالج القرآن الخمرة بشكل حيادي فيذكر منافعها، ولكنه يؤكد على أن إثمها أكبر من نفعها.
- أما في سورة النساء (43) فينهى عن الاقتراب من الصلاة في حالة سكر.
- ليعود في المرحلة الرابعة في سورة المائدة (90) ويأمر باجتناب الخمرة لأنها رجسٌ من عمل الشيطان.

يبين هذا المثال أن التعامل مع الناسخ والمنسوخ يجب أن يكون مرتبطاً بمعرفة تسلسل نزول الآيات، وهذا ما ليس واضحاً في كثير من الأحيان، كما يبين أيضاً أن مبدأ النسخ هذا قابل للاستخدام حينما لا يكون هناك تناقض حقيقي بين الآيات. فالآيات القرآنية

الأربع التي تتحدث عن الخمرة منسجمة، ولا تناقض حقيقي بينها. فالكحول له فوائد حقاً في بعض المجالات كالطب مثلاً، ومن يشربه بالرغم من منعه فعليه على الأقل أن لا يقرب الصلاة إلا بعد أن يصحو. ففي هذه الحالة وأمثالها تم إبطال أحد التوجيهات، فقط عندما كان الأمر متعلقاً بطريقة التنفيذ أو التوضيح.

ولا يتعرض مبدأ النسخ هذا إلى الانتقاد إلا حينما يختلف الفقهاء حول الآية الناسخة والأخرى المنسوخة، فقد ذكر الفارسي في القرون الوسطى 148حالةً من هذا القبيل، بينما ذكر الشاه وليّ الله في القرن الثامن عشر خمس حالات فقط. بينما لم تذكر مدرسة المعتزلة في القرن التاسع حتى حالة واحدة، وهذه المدرسة تمثل حالياً وجهة نظر الأغلبية العصرية.

أما محمد أسد فقد عبّر عن ارتيابه بمبدأ النسخ وجمع شكوكه على الوجه التالي في شرحه للآية 106 من سورة البقرة التي تقول:

﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة: 106].

- إنه تصور يسيء إلى الخالق جلّ وعلا حينما نعتقد أنه يصحح نفسه في فترة قصيرة.
- لم يتكلم النبي ﷺ مطلقاً عن نسخ الآيات.
- يمكن بقليل من الومضات الفكرية إيضاح انسجام الآيات التي تبدو متناقضة ظاهرياً.

- ناقض هذا المبدأ نفسه من خلال التطبيق العملي.

- كذلك يرى محمد أسد أن القرآن حينما يتحدث عن نسخ بعض الآيات والإتيان ببديل عنها، فإنما يقصد بذلك علاقة القرآن ككتاب كامل بالإنجيل: فالوحي القرآني اللاحق يعوض الوحي الإنجيلي السابق، كما يدل على ذلك تعديل عقوبة الزنى من الإنجيل إلى القرآن.

وقد قال أحد الحقوقيين إن حجج الفقهاء الذين يدافعون عن مبدأ الناسخ والمنسوخ، تذكره بزملائه الذين لا يجهدون فِكرهم من أجل حل معضلة قانونية بالعودة إلى النصوص ذات الصلة ولكنهم يلجؤون بسرعة إلى استخدام مبدأ الإخلاص والصدق.

نسخ المصحف الأولى:

لقد أخذ مضمون القرآن وضعه الأخير سنة 632 إلا أن شكله الكتابي وترتيبه على ما هو عليه اليوم احتاج إلى بضع سنوات أُخَر. وقد كان أحد أسباب هذا التأخير أن الكتابة العربية لم تكن قد تطورت بشكل كافٍ أيام الرسول الكريم. ولم تكن بعض الحروف تُمَيَّز آنذاك إلا من سياق النص. فالتشكيل لم يكن معروفاً في الكتابة ولم تكن هناك إشارة للشدّة أو الهمزة.

وهكذا كان الخط الكوفي في عهده الأول يترك مجالاً لاحتمالات عدة في القراءة، ويقول حميد الله: إن مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان يعود إلى عدم القراءة الصحيحة: ففي رسالته إلى والي مصر

لتسليم مقاليد الأمر هناك إلى خلفه كان فيها جملة تقول: «إذا أتاك، فاقبله» وبما أن فعل الأمر من «قبل وقتل» لهما نفس شكل الكتابة من دون التنقيط الذي لم يكن معروفاً آنذاك، فقد أسيء فهم القسم الأخير من الجملة، وقُرِئت على أنها «واقتله». وهنا كانت بداية الحملة لقتل الخليفة.

كانت الكتابة الكوفية في القرن السابع ممدودة وضخمة وصعبة، ولكنها كانت أيضاً بسيطة، بينما تمتلئ الكتابة القرآنية اليوم بآلاف الإشارات والعلامات فوق السطر وتحته. على أية حال فقد كانت نسخ المصحف الأولى هامة من حيث كونها دعامة لذاكرة المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن غيباً على أية حال. وقد كان الخط الكوفي غير الدقيق مساعداً لقراءة القرآن بلهجات القبائل العربية المختلفة في أواسط شبه الجزيرة العربية وفي شمالها.

كانت الطريق طويلة للوصول إلى الكتابة العربية الحديثة. ففي البداية ابتدأ تشكيل الخط الكوفي بنقط إفرادية، سميكة وغالباً ما كانت باللون الأحمر وقد سميت (نقط الإعراب). فبوساطتها تم التفريق بين الأحرف الساكنة المتشابهة كالباء والنون (ب،ن) أو كالفاء والقاف (ف،ق). وقد كانت بداية هذا التنقيط في أيام الخليفة عمر، كما تدل على ذلك بعض رسائله التي ما زالت محفوظة حتى اليوم. أما في أيام الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان (685-705) فقد بدأ استخدام خط صغير (شَرطَة) مفرد أو مضاعف للدقة في التشكيل. وأخيراً تطورت بعض الإشارات الخاصة كتلك الدائرة الصغيرة التي تدل على سكون الحرف.

ولابد من الاعـتـراف بأن (نقط الإعـجـام) هذه لـم تسـاعـد على القـراءة الواضحـة فـقـط، وإنما أغنت الطـاقـة الجـمـاليـة لكتـابة اللغـة العربية بأشكال متنوعة.

ثم أخذ المصحف شكله الأخيـر بكتـابة أسـمـاء السُّوَر وعـدد آياتهـا وزمـان نـزولهـا ومكانه. كـذلك أُضـيـفت إشـارات الفـصـل للتـمـييـز بين الآيات ووضع إشـارات جانبيـة لتبيـان الأجزاء والأحـزاب وتقسيـماتهـا. كمـا وضعت إشـارات جانبية حيث ينبغي السـجـود عند المرور بالآيات التي وضعت هذه الإشارات إلى جانبها (السجدة الطويلة).

وتتـميـز نسخ المصحف الحـالية بدقتهـا، حيث يمكن للمـرء أن يقـرأ النص قـراءة صـحـيـحـة بناء على مـا على الأحـرف من تنقيط وتـشكيل وإشـارات وعـلامـات. إلا أن الكتـابة الحـاليـة لا تحـتـوي على الإشـارات التـي توضع فـي الجُـمل كـالنقطة والفـاصـلة أو إشـارة الاسـتـفـهـام والتعجب، أو مـا يدل على الكلام المبـاشـر، لأن وضع هذه الإشارات قد يضيق من إمكـانيـة تفسـيـر القـرآن وشـرحـه. وهكذا تـبـقـى نتيـجـة ذلك كلمـة (ما) على سـبيل المثـال؛ دالّة على النفي أو الاسـتفـهام أو قـد تكون في نهاية الجملة لتدل على نتيجة معينة.

تنظيم القرآن

«إننا نجد القرآن منطقياً تماماً إذا تعاملنا معه كوحدة متكاملة»

(نيل روبنسون)

التقسيم الشكلي:

1- الأجزاء والسور والآيات:

يتكون القرآن من مئة وأربعة عشر فصلاً تسمى سوراً، تتوزع بدورها إلى 6236 آيةً. ويتكّوَّن النص القرآني من 77437 كلمة موزعة في ثلاثين جزءاً تقسم إلى ستين حزباً ومئة وعشرين ربعاً. وهذا ما يسهل تلاوة القرآن في أقسام متساوية الطول وخاصة في الأيام الثلاثين من شهر رمضان، شهر الصيام.

تختلف أطوال السور والآيات بشكل كبير، فسور العصر (103) والكوثر (108) والنصر (110) هي أقصر السور وتتألف كل منها من ثلاث آيات. أما أطول السور فهي سورة البقرة (2) وتشكل بآياتها الست والثمانين بعد المئتين جزءاً من اثني عشر جزءاً من كامل نص المصحف الشريف. وعلى أية حال فإن طول السورة لا يرتبط بعدد آياتها فهناك آيات مكونة من كلمة واحدة فقط لا بل من حرف واحد فقط كالآية الأول من سورة ص و ق والقلم (68،50،38) وللمقارنة فإن

سورة الشعراء (26) القصيرة نسبياً تتكون من 227 آيةً وهذا العدد أكبر مما تحويه سورة آل عمران (3) الطويلة. وإذا أخذنا الآيات بعين الاعتبار فإن منتصف القرآن يقع في سورة النحل (27) أما إذا قيس على الكلمات فإن منتصفه يقع في سورة الكهف (18).

2- الأسماء

لم تهبط أسماء السور بوحي إلّهي ولكنها وضعت من قبل بعض الصحابة لذلك نرى أن بعض السور تحمل أكثر من اسم واحد مثل سور التوبة والإسراء وفاطر وغافر وفصّلت والإنسان والمطففين والشرح والعلق والزلزلة وقريش والمسد والإخلاص (9، 17، 35، 41،40، 76، 83، 94، 96، 99، 106، 111، 112) يستثنى من ذلك السور التي ورد فيها اسم محدد أو أحرفها الأولى (طه،يس). كذلك سميت السورة الثانية سورة البقرة لأن هذه الكلمة وردت فيها أربع مرات، بينما لم تذكر في أي مكان آخر من القرآن. ويمكن القول بشكل عام إن أسماء السور ليست دالة دائماً على محتواها باستثناء سورتي النساء (4) ويوسف (12).

كذلك أعطيت أسماء خاصة لبعض الآيات الهامة أو المحبوبة، ومن بينها آية الكرسي (البقرة 255)، وآية النور (النور 35) وآية السيف، (التوبة 5)، وآية الحجاب (الأحزاب 53).

3- البسملة :

المسلمون معتادون على أن يبدؤوا أي نشاط في حياتهم اليومية بذكر اسم الله كما يوصيهم القرآن. وهذا ما ينسجم مع كلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» التي تبدأ بها سور القرآن الكريم.

وبذلك فـإن البـسـملة في كل الأحـوال جـزءٌ لا يتـجـزأ من القـرآن الكريم، إلا أنـهـا تعـتبـر الآية الأولى فـي سـورة الفـاتحـة فقـط، وبذلك تكون جـزءاً لا يتـجـزأ من هذه السـورة. وهـذا مـا تتكره أقليـة من تابعي الطريقـة الفـقـهـيـة الحنبليـة. والأئمـة في مكة والمدينة المنورة يبـدؤون تلاوة الفـاتحـة بآية «الحـمـد لله رب العـالمين» وهذا مـا تنكره عليـهم الأغلبية وتعتبر هذه الآية هـي الثانية.

إلا أن البـسـملة غـيـر مـوجـودة في سـورة التـوبة، السـورة التـاسـعـة، وذلك لأن الرسـول الكريم لم يـأمر بوصل السـورتين الثامنة والتـاسـعـة، ولم يوعـز ببدء السـورة التـاسعة بـالبسـملة كمـا هـي العـادة. لذلك فقـد ترك المسؤولون عن جمع المصحف هذه السـورة استثنائيـاً بدون بسـملة، تدفعـهم في ذلك دقتـهم في العـمل، وضـميـرهم، الذي يلزمـهم بـالتقيـد التـام بمـا لديهم خـشـيـة ارتكاب الأخطاء. كـذلك يمكن تفـسـيـر هذه الظاهـرة الاسـتـثنائيـة بأن سـورة التـوبة، ولو كـانت قـد نزلت بعـد سـبع سنين من نزول سـورة الأنفـال، إلا أنـهـا مـتـمـمـة لهـا من حيث الموضـوع. ويقـول مـفـسـرون آخـرون إن البـسـملة التـي تشـيـر إلى رحـمـة الإله بمنطوقها ليست موجودة في سورة التوبة، لأن ذكر القتل في الحروب وارد في هـذه السـورة. كـذلك يقـول المسلمـون عند الذبح الشـرعي للحيوانات كلمة «بسم الله» فقط دون ذكر «الرحمن الرحيم».

4- الترتيب الزمني:

تم ترتيب السـور في المصـحف الشـريف كـمـا وجّـه بذلك الرسـول الكريم، وليس وفق ترتيب نزولها الزمني، لأن ذلك لم يكن ليكون مفيداً لأن القـرآن ليس تصـويراً مـتسلسـلاً، وإنما يحتـوي على وصف بدئي

(أصلي) لحوادث تاريخية هامة. كما أنه ليس نصاً مترابطاً ومتتالياً بقدر ما هو هادف لتلاوة متقطعة. لذلك فإن كل سورة تمثل نصاً كاملاً مستقلاً ضمن مجموع كامل من النصوص.

ومع ذلك فإن فقهاء المسلمين يحاولون تثبيت التسلسل الزمني لنزول القرآن، لأن هذا التأريخ يمكن أن يكون حاسماً في شرح الآيات المِعْيارية، كما أشرنا سابقاً. وقد كان التأريخ لنزول بعض السور والآيات سهلاً وواضحاً، فهناك مثلاً توافق عام على أن الوحي ابتدأ بسورة العلق (1-5) وبداية سورة القلم وبداية سورة المدّثر وبداية سورة المزّمل وسورة الفاتحة وانتهى بالآية الثالثة من سورة المائدة (3) وسورة النصر والآية (281) من سورة البقرة.

وهناك ترتيب زمني لسور المصحف الشريف تعود إلى الصحابي الكبير ابن عباس. إلا أن هناك ترتيباً زمنياً آخر مختلفاً ذكره محمد بن إسحق بن النديم (المتوفى سنة 995) في كتابه «الفهرست» وهو من أقدم فهارس الأدب العربي. وهناك تسلسل زمني آخر لنزول السور ذكره محمد بن النعمان بن بَشير. وعلى أية حال فقد ذكر في الطبعة النموذجية المصرية، والتي سميت طبعة الملك فؤاد ونشرت بين عامي 1918 و 1925، ترتيب زمني يختلف عما ورد عن ابن عباس وعما ذكره ابن النديم. (ويمكن العودة إلى هذا الترتيب في الملحق: «التسلسل الزمني لنزول السور».) وحسب هذا التسلسل هناك سورتان فقط هما سورة نوح وسورة الانفطار يتلاءم وضعهما في المصحف مع ترتيبهما الزمني.

ولعل أحد أسباب الاختلاف بين هذه الترتيبات الثلاثة المذكورة في المصادر الإسلامية، يعود إلى الرغبة بتاريخ نزول بعض السور في وقت متأخر لإثبات نظرية الناسخ والمنسوخ. (وفي مثل هذه الحالة يكون التاريخ تالياً للتفسير بدل أن يكون أحد أُسسه).

أما المستشرقون الغربيون فقد زادوا من الشكوك حول صحة الترتيب الزمني لنزول سور القرآن الكريم بالرغم من الجهود الهائلة التي بذلت لذلك، وقد انطلق المستشرق تيودور نولديكه وتلميذه فريدريك شفالي بدراستهما المرحلية للقرآن "تاريخ القرآن" من التحاليل النصّية والأسلوبية واللغوية والمواضيع التي أتى بها القرآن، أكثر من اعتمادهما على المأثور الإسلامي. كذلك فعل ريتشارد بيل بعد حوالي قرن (1953).

ولكنهم فشلوا كلهم في ذلك لأن ستين سورة على الأقل تحوي آيات مكية وأخرى مدنية، بالإضافة إلى أن الكثير من الآيات قد تكون مكية ومدنية إذا ما قيست على معايير متشابهة.

وينتقد المسلمون محاولات التأريخ الغربية، لأنها تنطلق من تطوير لغة محمد ﷺ عوضاً عن القبول بأن الله ولغته لا يخضعان لأية عملية نضج وتطور. كذلك يتهمون المستشرقين بالوقوع في أخطاء منطقية تقود إلى حلقات مفرغة في أبحاثهم. فحقيقة أن الله تعالى يصف ذاته أحياناً بـ «الرحمن» فقط، لا تعني أنه لا يعود لاستخدام هذا الوصف نفسه في فترة لاحقة.

لذلك فإن التأريخ المؤكد لنزول سور القرآن الكريم يُعَدُّ اليوم ضرباً من المستحيل على خلاف وضع نزولها في مراحل محددة.

5- مراحل نزول آي الذكر الحكيم:

يمكن التمييز حسب نولديكه/شفالي بين خمس مراحل على الأقل لنزول القرآن الكريم دون أن تكون هناك حدود شديدة الوضوح فيما بينها، ويمكن أن نُجملها على الوجه التالي:

- المرحلة المكية الأولى بوحيها الإسلامي الأول، ولغتها النابضة بشاعرية رفيعة، حيث كان الله تعالى يعرف عن نفسه بأنه «رب محمد». ويصنف نولديكه ثمانٍ وأربعين سورة فقط في هذه المرحلة، إلا أننا يمكن أن نزيدها إلى ستين. (السور:1، 17-21، 50-56، 67-109، 111-114).

- المرحلة المكية الثانية بنصوصها ذات الإيقاع الأشمل. وفي هذه المرحلة كان الله تعالى يعطي لنفسه صفة «الرحمن» في الغالب. ويمكن تصنيف سبع عشرة سورة في هذه المرحلة. (السور:-32 29، 34-39، 40-46).

- المرحلة المكية الثالثة التي تتميز بالأسلوب الوعظي (الخطابي) الذي يبدأ باستخدام السجع الرتيب الذي تنتهي كلماته بـ ـ ون أو ـ ين. وفي هذه المرحلة يذكر تعالى نفسه بلفظ الجلالة «الله». ويمكن أن نصنف خمس عشرة سورة في هذه المرحلة. (السور:6، 7، 10-16، 22، 23، 25-28).

- مرحلة التشريع المدنية الأولى وتنتمي إليها تسع سور (2، 3، 8، 47، 58، 59، 61، 62، 64). كذلك فإن قافية ـ ون و ـ ين تصبح مسيطرة على أسلوب آيات هذه المرحلة.

- مرحلة التشريع المدنية اللاحقة وتصنف فيها السور الثلاث عشرة الباقية. (السور:4، 5، 9، 24، 33، 48، 49، 57، 60، 63، 56، 66، 110).

وهكذا فإن السور المكية في المرحلتين الأولى والثانية تتركز في النصف الثاني من المصحف الشريف، بينما نجد سور المرحلة الثالثة المكية في نصفه الأول. أما السور المدنية من سورة البقرة إلى سورة النصر فهي موزعة على كل أطراف المصحف. لذلك نرى أن تقسيم نزول القرآن الكريم في مراحل عدة يجب أن يتم بشكل عام وتقريبي، وحتى هذا التقسيم الذي فصلناه آنفاً ليس له «صفة ضمان صحته».

6- الترتيب حسب أطوال السور:

يُقال أحياناً إن سور القرآن مرتبة على شاكلة المختارات من الأدب العربي وحسب أطوالها. وبما أن السور القصيرة مكية كلها تقريباً والسور الطويلة نزلت في المدينة المنورة، فإننا نجد السور المدنية في بداية المصحف والمكية في آخره، إلا أن هذه الادعاءات كلها خاطئة: فمن ناحية جُمعت مختارات الشعر العربي بعد القرآن ولم تكن سابقة له. ومن ناحية أخرى لم تكن هذه المختارات مرتبة من الأطول إلى الأقصر، وإنما كان ترتيبها يتم أبجدياً حسب قافيتها. وأخيراً فإن الترتيب حسب أطوال السور ليس دقيقاً، فأول سورة في المصحف وآخرها مكيتان على سبيل المثال.

وبغض النظر عن قصر السورة الأولى كان من الحريّ أن ترتب السور الطويلة الآتية على غير الشكل الذي وردت فيه لو كان طول السورة حقاً هو العامل الأساسي للترتيب. ولو كان ذلك لكانت السور مرتبة على الشكل التالي: البقرة ـ النساء ـ آل عمران ـ الأعراف ـ الأنعام ـ المائدة ـ التوبة (2-4-3-7-6-5-9) ولو كان الترتيب من هذا المنطلق لكانت السورة الثامنة (الأنفال) في المرتبة العشرين. كذلك فإن ترتيب السور القصيرة في نهاية القرآن لا يتلاءم تماماً مع أطوالها، وإلا لوجب ترتيبها على الشكل التالي: التكاثر ـ الكافرون ـ الماعون ـ الفيل ـ المسد ـ الفلق ـ الناس ـ النصر ـ قريش ـ الإخلاص ـ العصر ـ الكوثر (102-109-107-105-111-113-114-110-106-112-103-108)

حتى ولو كان هناك خلاف على زمن نزول بعض السور والآيات، فإن من الثابت أن هناك سوراً مدنية من بين أقصر سور القرآن الكريم، مثال ذلك سورة النصر، وهناك سور مكية بين السور الطويلة. وفي الحقيقة فإن حوالي 86 سورة مكية تشكل ثلثي المصحف، بينما لا تشكل السور المدنية الثماني والعشرون بالمقابل إلا ثلثه، إن الترتيب العادي للسور حسب نزولها في مكة أو المدينة لا يعطي إلا سنداً ضعيفاً، ولا ينطبق غالباً حتى على آيات السورة الواحدة. ولكن هناك 4613 آية مكية مقابل 1623 آية مدنية.

إنه من سوء النية أن يُتهم أصحاب الرسول الذين اجتمعوا حول زيد بن ثابت لجمع المصحف بعدم استطاعتهم ترتيب السور بشكل دقيق وفق أطوالها. وهم لم يقوموا بذلك لأن الرسول الكريم هو الذي

وجّه بأسس الترتيب، وكان ذلك جزءاً من الوحي . ولأن ذلك كذلك فهناك ترابط منطقي بين السور يهدف إلى الوصول إلى تفسير وتأويل كافيين لآي الذكر الحكيم. وفي سياق الوصول إلى هذا الترتيب كان من الواضح أن هناك العديد من السور المتتالية التي تترابط مواضيعها كَأَنْ تبدأ سورة بالموضوع الذي انتهت به سابقتها. ونورد الأمثلة التالية على ذلك: الآية الأخيرة من سورة الفاتحة مع الآية الأولى من سورة البقرة ـ والآية 195 من سورة آل عمران مع الآية الأولى من سورة النساء ـ والآية 120 من سورة المائدة مع الآية الأولى من سورة الأنعام. كما نورد على سبيل المثال أيضاً أن الآية الأخيرة من سورة التوبة والآية الثالثة من سورة يونس تتحدثان عن الله رب العرش العظيم.

7- تقسيمات بديلة؟

يبدو للوهلة الأولى أن هناك تعارضاً بين جمع النسخة الأساسية للمصحف، وبين النسخة التي جمعها خاصة لنفسه أحد أفضل حَفَظَةِ القرآن الكريم وهو عبد الله بن مسعود، والتي تنقصها سورة الفاتحة وسورتا الفلق والناس. إلا أن هذا التعارض اتضح بعدما تبين أن ابن مسعود قد جمع في مصحفه سوراً متتالية واعتمد في ذلك على أن النبي كان يتلوها متتالية في صلواته. كذلك أُبَي بن كعب، أحد أفضل حفظة القرآن من الصحابة، قدّم سورة النساء على سورة آل عمران (وكذلك فعل ابن مسعود أيضاً) لأنه سمع الرسول ﷺ يتلو في صلواته هاتين السورتين كذلك.

لذلك فالحقيقة أن نسختي ابن مسعود وابن كعب ليستا نسختين بديلتين للنسخة النموذجية، وإنما هما تسجيل ذو قيمة تاريخية كبيرة لما كان يتلوه الرسول في إمامته المسلمين في صلواتهم.

تقسيم المصحف حسب مضمونه:

1- المواضيع الرئيسية:

باستثناء بعض السور التي تدل أسماؤها على مضامينها أو الموضوع الرئيسي فيها ، كسورتي النساء ويوسف مثلاً، فإننا لا نجد في القرآن ترتيباً واضحاً حسب مضامين سُوَره. بل على العكس فإن القرآن يعالج نفس الموضوع أو مواضيع متشابهة في مواقع مختلفة، ولا يعود ذلك إلى أهمية بعض المواضيع وضرورة التأكيد عليها، وتكرار ذكرها فقط، وإنما أيضاً إلى أن الإعادة ضرورة لأن كل سورة تشكل بذاتها كلّاً متكاملاً. وننصح هنا بالعودة إلى فهرس المواضيع عند البحث عن موضوع معين بدل العودة إلى فهرس السور.

ومع ذلك فإن ترتيب مواضيع النص القرآني ممكنٌ إلى حد بعيد وفق المخطط الذي وضعه أبو حامد الغزالي في القرن الثاني عشر في كتابه (جواهر القرآن) وحدد فيه ستّة مواضيع رئيسية:

- معرفة الله
- شرح السبيل إلى معرفته
- تعريف كيان الإنسان

- دروس من تاريخ الإنسانية
- حجج ضد الكفر
- مبادئ الحياة.

أما (فضل الرحمن) فقد ذكر في كتابه «مواضيع القرآن الأساسية» الذي صدر سنة 1980، القائمة التالية التي تضم تسعة مواضيع أساسية في القرآن الكريم:

- الله
- الطبيعة
- الإنسان (كفردٍ في المجتمع)
- النبوّة
- أمور الآخرة
- الشرح
- المجتمع الإسلامي
- «أهل الكتاب» (اليهود والنصارى)
- التعددية الدينية.

ولابد أن ننبه هنا إلى أن كلمة «الطبيعة» في القرآن الكريم تعني أيضاً «المذهب الطبيعي» كمذهب فلسفي، وهذا ما يميّز القرآن كليّاً وجذرياً عن بقية الكتب السماوية. وحينما يرد ذكر كلمة «آية» في

القـرآن الكريم، فـلا يعنـي ذلك دائمـاً الآية بمعنى جـملة من القـرآن، وإنما تعنـي هذه الكلمـة أيضـاً «دليـلاً» و«إشـارة» و«ظـاهرة طبـيعـيـة» و«برهاناً» و«معجـزة في الخلق» وفي هذا السياق يعتبر الكون والقرآن من آيات الله المعجزة الرائعة.

2- «الوصايا العشر»:

إن القرآن هو «الهدى» في مبادئ الحياة، فهو كتاب ينصح بالأخلاق بكل حرف فيه ويهدي إلى ما فيه خير الإنسان في شؤون حياته بما يتلاءم مع طبيعته وبيئته وتوجهاته. أما الأحكام الأخلاقية فهي موزعة على كامل القرآن.

وعلى أية حـال فـإننا يمكن أن نرى في الآيات 22-39 من سـورة الإسراء، نوعاً من «الوصايا العشر» الإسلامية، حيث يطلب إلى الإنسان:

- ألاّ يجعل مع الله إلهاً آخر،
- احترام الوالدين والإحسان إليهما،
- التوبة وطلب المغفرة،
- إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل وعدم التبذير،
- الثقة بأن الله يبسط الرزق لمن يشاء،
- لا تقتلوا أولادكم خَشية إملاق،
- لا تقربوا الزنى،
- لا تقتلوا النفس التي حرّم الله،

- عدم الإسراف في القتل ثأراً لمن قُتل مظلوماً،
- لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن،
- أوفوا بالعهد،
- أوفوا الكيل وزِنوا بالقسطاس المستقيم،
- ولا تَقْفُ ما ليس لك بهِ علِم،
- ولا تمشِ في الأرض مرحاً، بل تواضع.

3- تحليلات بنيوية:

يعتقد المسلمون والمستشرقون المتعاطفون، مثل جاك بيرك، منذ زمن طويل، أن القرآن مبنيٌّ لغةً ومضموناً على أنه مكوّن من أجزاء مستقلة، أو كأنه أحكام قانونية، أو مجموعة من أحكام ومبادئ.

وقد قام (نيل روبنسون) بقياسات «متساوية الديمومة» حيث أعطى المقاطع اللفظية ذات النبرة نقطتين، وما ليست ذات نبرة نقطة واحدة فقط. وحينما استخدم هذا المقياس على الآيات الخمس الأولى من سورة العلق التي هي أول ما أوحي من القرآن (1-5)، حصل على التقويم الإيقاعي لخمس الآيات هذه على الشكل التالي 12:10:8:10:12 وبذلك أثبت وجود تناظر صوتي واضح.

ويعتقد روبنسون أن الله وضع في القرآن سجلّات صوتية مختلفة وفق أ)الجدلية اللاهوتية ب)شؤون البعث والحساب الأخروي جـ)خطابه إلى النبي د)الدروس المستقاة من تاريخ الأنبياء هـ)آيات الله في الخلق والطبيعة، وأخيراً و)العمل بأحكام الوحي المنزل.

ويستطيع المرء أن يتصور أية بُنىً أخرى يمكن التوصل إليها عن طريق التحاليل الحاسوبية العديدة في يومنا هذا.

وخلال ذلك أوضحت تحاليل ودراسات بنيوية مختلفة قام بها بالدرجة الأولى: كل من حميد الدين فرحي وأمين أ. إصلاحي وأَنْغلِيكا نُويْفيرت، أن ترتيب السور والآيات وتقسيمها بل وقيمتها الصوتية أيضاً، تندرج كلها تحت «نظم» و «نظام» رفيعين يؤديان إلى ترابط منطقي رفيع بين المعنى وجَرْسِ الصوت والإيقاع اللفظي والبنية الكلامية والإنشاء الشكلي في القرآن الكريم.

لقد أعرب الفقيه الهندي في العلوم القرآنية حميد الدين فرحي (1863-1930) كأول باحث حديث، عن قناعته بأن ترتيب السور والآيات وتتاليها وفق ما هي عليه، هو أمر ذو قيمة فائقة من أجل فهم عميق للرسالة القرآنية. وقد ذكر هذا العالم أنه استطاع التحقق من أن كل سورة تشكل بحد ذاتها «وحدة عضوية» متكاملة ذات «عمود» (موضوع) مركزي، ضمن القرآن الذي يشكل بمجموعه أيضاً وحدة كاملة متكاملة. وقد صنف فرحي السُوَر بشكل حَدْسي بَدَهي، دون سند علمي متين، في تسع مجموعات.

كذلك قام الباحث الهندي الآخر أمين أحسن إصلاحي (1904-1997) بتعميق هذا التحليل والدراسات، وجمعها في تفسيره للقرآن الذي وضعه باللغة الأوردية وفي تسعة أجزاء تحت اسم «تَدَبُّرُ القرآن». وقد رأى أن

هناك في مجمل القرآن، باستثناء سورة الفاتحة وسورة النور وسورة الأحزاب (1، 24، 33)، ثنائيات من السُّوَر تشكل كل منها وحدة في المضمون: فتذكر السورة الأولى موضوعاً لتلحق بها التالية بالاستفاضة بالشرح، أو بالتركيز على جوانب مختلفة من نفس الموضوع. وتظهر هذه الثنائيات بشكل واضح في كل من سورتي البقرة وآل عمران (2+3)، وسورتي النساء والمائدة (4+5)، وسورتي الأنعام والأعراف (6+7)، وسورتي الأنفال والتوبة (8+9). كما تبدو فرضية الثنائيات هذه معقولة وقريبة إلى الأفهام في الكثير من الأزواج الأخرى من سور القرآن الكريم.

لقد صنف إصلاحي سبع مجموعات من السُّوَر فقط، عوضاً عن التسع التي صنفها فرحي من قبله. وكل مجموعة تبدأ بسورة مكية (في الأغلب نظرية) وتنتهي بسورة مدنية (في الأغلب عملية):

المجموعة الأولى: سورة 1-5 الموضوع : التشريع

المجموعة الثانية: سورة 6-9 الموضوع : الديانات الإبراهيمية

المجموعة الثالثة: سورة 10-24 الموضوع : الحق والباطل

المجموعة الرابعة: سورة 25-33 الموضوع : دور النبي ﷺ

المجموعة الخامسة: سورة 34-49 الموضوع : وحدانية الله (التوحيد)

المجموعة السادسة: سورة 50-66 الموضوع : الحياة الأخرى

المجموعة السابعة : سورة 67-114 الموضوع : وعيد الكفار

لا شك أن الترابط البنيوي مفتاح هام لفهم صحيح للقرآن ولكنه ليس المفتاح الوحيد، لاسيّما وأن محاولة الوصول إلى تحديد الموضوع الرئيسي في سورة أو مجموعة من السور، ليست عملية موضوعية تماماً.

وسنشير فيما يلي بشكل خاص إلى المواضيع الأساسية التي لا يرقى إليها الشك في السور السبع التالية:

- سورة الفاتحة وهي أول سورة أوحيت إلى الرسول الكريم ﷺ بآياتها السبع دفعة واحدة. وتلاوة هذه السورة جزء أساسي من طقوس الصلاة، لأنها تجمع في مضمونها كل المواضيع الأساسية في القرآن وعلى المسلم الذي يزاول شعائر الدين، أن يتلوها سبع عشرة مرة في اليوم على الأقل.
- تحتوي سورة البقرة، وهي السورة الثانية وأطول سورة في القرآن، وأول سورة نزلت في المدينة المنورة، تعاليمَ التشريع الإسلامي كاملة والمبادئَ الأخلاقية المذكورة في القرآن كلها تقريباً، ولو كان بشكل مقتضب، ولذلك تسمى هذه السورة «أم القرآن»، كما أنها تستفيض في الحديث عن اليهودية.
- تتناول السورة الثالثة، سورة آل عمران، المسيحية بشكل رئيسي في مضمونها.
- أما السورة الرابعة، سورة النساء، فتبحث، كما يدل اسمها، بشكل رئيسي في شؤون العائلة وشؤون المرأة.

- وتحتوي السورة الخامسة، سورة المائدة، قواعد التغذية الإسلامية.

- أما سورة يس، السورة السادسة والثلاثون فتُتّلى عادة فوق رأس الميت.

- كذلك سورة الإخلاص، السورة الثانية عشرة بعد المئة، فهي بيان لعقيدة التوحيد الإسلامي وتعادل ثلث القرآن الكريم، كما نُقل عن الرسول ﷺ، ولذلك فإن بعض المسلمين يتلونها في صلواتهم ثلاث مرات متتالية.

- أما السورتان الأخيرتان، الفلق والناس (113، 114) فلهما دور خاص كسُوَر «وقاية».

لغة القرآن

«الشاعرية في خدمة البلاغة والبلاغة في خدمة الدين»

(كينيث كراغ)

الشاعرية والجمال:

لا تحظى لغة من لغات العالم، بما فيها الفرنسية، باحترام وتقدير أكبر مما تحظى به اللغة العربية. وقد اعتقد المسلمون الأوائل، اعتماداً على الآيات (يوسف 2 والنحل 103 والشعراء195)، أن الله تعالى هو الذي أنزل اللغة العربية كاملة (توقيف اللغة). وقارن آخرون مقارنة عرجاء غير موفقة بين اختيار اللغة العربية كوسيط للوحي القرآني، وبين الشعب اليهودي المختار في العقيدة الموسوية. وعلى أي حال فلم يكن في بلاد العرب قبل الإسلام نتاجٌ حضاري أهم من الشعر القصصي والغزلي الرفيع. لقد ابتدأ العرب يأسرون العالم بكلامهم وقصائدهم، وكانت مدنيتهم مدنية النصر (أبو زيد). وإذا كان شفاء المرض من آيات عيسى، والسحر من آيات موسى، فإن آية الإسلام كانت اللغة منذ البداية.

ولذلك كان من الطبيعي (دون أن يكون في ذلك إساءة إلى الرسول الكريم) أن يتهم المكيون النبي في أول عهده بأنه شاعر غير موهوب، كما انعكس ذلك في القرآن الكريم في سورة الحاقّة 40 وما يليها

وسورة الطور 30. فإذا كان المقصود بذلك أن محمداً ﷺ قد أوجد القرآن أو نظمه فهذا خطأ وادّعاء غير صحيح، أما إذا كان تعبيراً عن جمال النص اللغوي وبلاغته فهذا صحيح لا ريب فيه. علِماً أن القرآن نحا بأسلوبه منحىً مختلفاً تماماً عن الأسلوب الشاعري التقليدي للعرب.

لا يمكن تصنيف القرآن، وهو كلمة الله، كفرع من فروع الأدب وتدنيسه باعتباره شعراً منثوراً أو نثراً مسجوعاً. ولكن القرآن من ناحية أخرى لغة تخضع لمبادئ جمالية اللغة العربية التقليدية وقواعدها. ولو كان القرآن «لغة ربانية فوق اللغات» لما استطاع العرب فهمه، ولما أُخذوا بجمالية نصه، ولما كانت تلاوته ممكنة إلا في نطاق العبادات. ولكن القرآن حقاً كان له أبلغ الأثر الجمالي على سامعيه الأوائل، فأخذ بألبابهم كما لم يفعل أي نص آخر في الأدب العالمي كله.

لذلك فإنه من الممكن والمسموح به دراسة الميزات اللغوية والأسلوبية في القرآن الكريم دراسة تحليلية. وهكذا فإننا نميّز بين اللغة الشاعرية الرفيعة والبليغة والقوية لنصوص السور الأقدم، وبين السور المدنية ذات النفس الطويل. هذا مع أن واضع هذين الأسلوبين من النص واحد، وكما توصلت إلى هذه النتيجة أيضاً دراسة تحليلية لغوية أجريت باستخدام الحاسوب في باريس. ولم تكتفِ الدراسة بهذا الاستنتاج فقط، بل أكدت أن مؤلف هذا النص مختلف تماماً بأسلوبه عن أسلوب محمد ﷺ فيما تواتر من الحديث عنه. كما أن الاختلاف في الأسلوب اللغوي لهذين القسمين من المصحف يتلاءم مع هدف كل

منهما: ففي مكة كانت الغاية وضع أسس الشريعة وتبيانها، بينما أصبحت الغاية في المدينة بعد الهجرة التطبيق العملي لمبادئ الدين وأحكامه. في مكة كانت الدعوة إلى الإسلام هي الأساس، بينما أصبح الهدف في المدينة إدارة شؤون المسلمين.

إذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نميز بين النثر القرآني والتعبير الشاعري في القرآن. ولكن لابد من القول إن غير العربي لا يستطيع أن يلحظ أو يحيط بجمالية السور القرآنية أو المكوّنات الجمالية ويستوعبها بشكل كامل. وقد قام نافيد كرماني وأنغليكا نُويْفيرت بدراسة شاملة لهذا الموضوع.

إن هذا الجمال الشكلي لا يعود إلى السجع المُقَفّى، وإلى الكلمات المتلاحقة بأحرف متشابهة فقط، وإنما يعود أيضاً إلى الجِناس والاستعارة والإيقاع. وسنحاول فيما يلي توضيح هذه الجمالية القرآنية على مثال سورة الزّلزَلة، مع لفت النظر إلى أن القافية المسجوعة تمتد على ثلاثة مقاطع:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزَّلزَلة: 1-8].

وتوضح لنا هذه السورة أيضاً إلى جانب السجع والحيوية التي تحويها، أسلوباً قرآنياً آخر، ألا وهو النظمُ المُبَوَّب. فالآية السادسة تبدو وكأنها مضافة أو موضوعة بين قوسين، ولكنها بمعناها تشكل نقلةً جمالية، وتعطي استراحة قصيرة للتفكير، كما تحيط السورة كلها بإطار شامل. ومع الأسف فقد اعتبر العلماء المستشرقون في بداية أبحاثهم، الجمل الثانوية وكأنها أدخلت خطأً، أو وضعت في غير مكانها، إذا لم نقل إنهم كانوا ينظرون إليها كأجزاء تتعارض مع تراتبية النص الأعم . وهكذا لم يستطيعوا أن يكتشفوا بالطبع أنَّ هذه الجمل هي في مكانها الصحيح من حيث المبنى والمعنى.

كذلك فإن سورة القدر تترك انطباعاً جمالياً رائعاً عند قارئها:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: 1-5].

ويؤكد المطران كينيث كراغ في كتابه «حقيقة وجود القرآن» بحق أن «الوحي الحقيقي الصحيح يحتوي دائماً على أسلوب شاعري» لأن معناه ينتج الأنغام الموسيقية. ولكن لا علاقة لذلك بعبقرية الرسول، لأن المتكلم هنا هو الله جل جلاله. وهكذا يمكن القول إن هناك فناً دون تصنُّع، وهناك حقيقة دون مقاصد مخفية.

عبارات القسم واللعن:

حرف (الواو) هو حرف العطف في اللغة العربية، لكن هذا الحرف إذا سبق اسمَ ذاتٍ قد يصبح أداة قسم في بعض الأحيان فمثلاً تعني عبارة «والشمس» قسماً بالشمس.

وتبدأ عدد من سور القرآن الأولى بعبارات قسم، كسورة القلم والقيامة والمُرْسَلات والنازِعات والبروج والطارق والفجر والشمس والليل والضحى والتين والعصر (68، 75، 77، 79، 85، 86، 89، 91، 92، 93، 95، 103).

ويؤكد الله تعالى في هذه الحالات بإشارته إلى معطيات لا يُشَكُّ بوجودها. فهو يقول مثلاً: «والليل إذا يغشى» (92) أو «والتين والزيتون» (95) وكذلك «والعصر» (103).

ومما يلفت النظر أن الله تعالى لم يُقسم أبداً بذاته الكريمة، أو بأي شيء معنوي أو مجرّد آخر. وقد استنتجت (بنت الشاطئ) في دراسة لها أن ذلك يعود إلى أن القسَمَ هو أسلوب تعبيري، ويجب أن يوقظ المرءَ، ويهز ضميرَه بالإشارة إلى أشياء محسوسة دون أن يعني ذلك أي تمجيد أو تعظيم لهذه الأشياء. أما (أنغليكا نُويْفيرت) فترى أن هذا الأسلوب اللغوي ليس قسماً بالمعنى العادي، وإنما هو أسلوب أدبي للإعلام عن موضوع السورة اللاحق.

وعلى أي حال فإن عبارة «لا أقسم»، والتي افتتحت بها سبع سور، يمكن أن تفسر قواعدياً بمعنيين مختلفين حسب النبرة وموضعها من الكلام، فيمكن أن تقرأ «لا أقسم» ويمكن أن تقرأ «لأُقسم» حيث تكون في أولاها لا النافية وفي الثانية لام التوكيد.

ثم إنه يبدو أن القرآن يحتوي في مواضع قليلة منه عبارات لعنة من الله كمثل: «قُتِل الخرّاصون» (الذاريات10) و«فَقُتِلَ كيف قَدَّر» (المدّثر19) و«قُتِل الإنسان ما أكفره» (عبس17) إلا أن تفسير ذلك على أنه لعنة من الله ليس أكيداً بالضرورة، فاستخدام الفعل للشخص الغائب بصيغة الماضي والمجهول إلى جانب وجود تعبير عن الرغبة، قد يكون وصفاً لحادثة قد تمت. فكلمة «قُتِلَ» على سبيل المثال قد تعني «فَلْيُقتل» كما يمكن أن تعني «قد قُتِل»، وفي هذه الحالة الأخِيرة لا يمكن اعتبار هذه العبارات ذات صلة باللعن.

التشبيه والاستعارة:

يتطلب مجال ما وراء الطبيعة بمفهوماته المتعددة، كالذات العليا والملائكة والجن والفردوس والجحيم إمكانات لغوية رفيعة لا يمكن أن تستجيب لها أية لغة في العالم مثل ما هي الحال عليه في استجابة اللغة العربية لذلك في النص القرآني الكريم، هذا مع أن مفردات اللغة العربية، شأنها شأن اللغات الأخرى، نشأت نتيجة تسمية كل ما هو محسوس ومُعاش، وليست مؤهلة لتجاوز العتبة للتعامل مع ما هو وراء الغيب إلا بمقدار.

والقرآن يعترف بهذه الصعوبة من خلال لجوئه إلى ضرب الأمثال والإتيان بصور ومقارنات ومقاربات، وخاصة إذا كان ذلك في مجال تعليمي (سورة الإسراء 60 إرشادات مجدية). وتأتي آية النور (النور59) لتنقل على لسان الله تعالى أن نور جلاله لا يفهم إلا على سبيل المثال والمقارنة.

وتأتي قدرة القرآن على التعبير عن أمور الغيب جراء استخدامه لأسلوب التشبيه والاستعارة، حيث يتم نقل ما هو مجرّد ومعنوي عن طريق الأمثلة والصور التي تعطي تصوراً متجذراً في التجارب الإنسانية لما هو مجرد لا ينضوي تحت وصف مادي. إلا أن الخطر في ذلك يتأتّى من احتمال نسيان المفهوم المعنوي لهذه الصور والمفاهيم، وبذلك يصبح المرء ضحية تحويل الصورة الإلّهية وكل ما وراء الغيب، إلى صور بشرية.

لذلك يجب أن نعي أنه لا يجوز الاعتقاد بإمكانية الإحاطة بالله تعالى من خلال قراءة أسمائه الحسنى التسعة والتسعين (وربما أكثر) موزعة في القرآن الكريم (الإسراء110) والتي ذُكر الكثير منها في سورة الحشر22-24، حيث يوصف الله تعالى بأنه هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور العزيز الحكيم. وهكذا لا نستطيع أن نفهم أي واحدة من هذه الصفات الخمس عشرة إلا بمقابلتها ومقارنتها مع خبراتنا الإنسانية، وهذا يعني في النهاية أننا لا نستطيع الإحاطة بها لأن الله ليس كمثله شيء، ولا نستطيع إدراكه فهو خارج الزمان والمكان. حتى أننا لا نستطيع أن نتكلم عن «وجودٍ» حقٍ لنا في هذا العالم لأن الله تعالى هو وحده صاحب الوجود الحق.

وهكذا لا يبقى أمامنا إلا أن نتصرف بشكل «إسمي»، أي أن نأخذ كلمة الله كما هي «بلا كيف»، على مبدأ الفلسفة الإسلامية الأشعرية.

وتنطبق نفس الحال على الأوصاف القرآنية المنمقة والتجسيمية عن «يوم الدين» حيث «تدق الساعة» وعن الجنة وجهنم.

أما الكارثة الكونية في نهاية الزمان فقد وصفها القرآن بشكل مفهوم يدركه العقل بسهولة:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات: 8-10].

ومثلها بمضمون مشابه الآيات 1-5 من سورة الانفطار

ولكن ما الفائدة من وصف القرآن لهذا العالم غير المرئي؟ علينا أن نفهم أوصاف السعادة والآلام في الآخرة على أنها تشبيه وصورٌ لما لا يُصَوّر. لذلك فمن غير المفيد أن نخوض في تفاصيل هذه الأوصاف، لأن الهدف في النهاية هو إيصال الرسالة إلى الإنسان من أنه سيحاسب بعدلٍ على سلوكه في هذه الحياة الدنيا، وأن حياة أبدية تنتظره بعد موته سيكون فيها بحسب عمله سعيداً أو تعيساً.

يذكر القرآن جنات عدن متكئين فيها على الأرائك لا يرون شمساً ولا زمهريراً، وهناك «عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً» (الإنسان 6) كما هناك «فاكهة ونخلٌ ورُمّان» (الرحمن68)، وهناك حورٌ عِين مقصورات في الخيام ينتظرن تزويجهن بمؤمنين (الطور20، الرحمن 72، الواقعة22) كما يذكر اللؤلؤ المكنون والولدان المخلدين (الواقعة17).

لا يمكننا الاستنتاج من هذا الوصف أن القرآن من كتابة شخص عربي، ولكن الأكيد أنه تاريخياً أول كتاب يتوجه إلى العرب، ولذلك فهو يلغي تصورهم عن "جنة تنابلة السلطان"، ولا عجب أن هذا الوصف ضروري لتقريب صورة الجنان إلى أذهان ناس اعتادوا أن يعيشوا في جو حار لا ماء فيه ولا شجر إلا ما ندر.

تتناوب أوصاف الفردوس وجهنم بتباين واضح في القرآن الكريم، وبنبرات دالّة متعددة. فالآيات13-27من سورة الطور (52) مثال جيد على هذه الصورة المزدوجة. قد ينفر بعض القراء من هذه التهديدات القاسية، ولكنّ قارئاً كهذا يجب أن يضع نصب عينيه أنّ المدافع الثقيلة البلاغية ضرورية لتهز أركان الإنسان، وتخرجه من سطحيته الماجنة المستهترة، ومن شهوانيته وتبلدّه وخموله، حتى يتذكروا أنهم ميتون ويعملوا لآخرتهم قبل حلول أجلهم. ألا تعيش غالبية الناس اليوم أيضاً بلا اهتمام ولا تفكير بمنيّتهم إلا على أنها احتمالٌ غير أكيد أو على الأقل بعيد؟!

يجب أن نعترف أنّ القرآن نجح نجاحاً باهراً بتصويره العنيف، لذلك التناوب بين أمرين لا ثالث لهما في الآخرة يوم الحساب. لقد أحدث القرآن في مكة والمدينة ثورة ثقافية أثرت في المسلمين الأوائل تأثيراً شديداً وبدلت نفسياتهم من جذورها. لم يكن هناك قبل رسالة الإسلام ولا بعدها مجتمع كمجتمع هؤلاء المسلمين الأوائل الذين كانوا يثقون بالله ورسوله ثقة لا حدود لها، وكانوا مستعدين للتضحية بأموالهم وأجسادهم وحياتهم في هذا السبيل. أشعل القرآن فيهم حساً بالبطولة تجاوز عدم الاهتمام بالموت ليصبح «شوقاً دينياً للموت».

وهكذا أصبح المسلمون الأوائل شهداء لا بكرامة الرسول والهالة القدسية من حوله فقط، وإنما أيضاً بتأثير ذلك العالم الباهر من الصور القرآنية. هل كانوا سُذّجاً بسبب ذلك أم نحن السُذّج؟!.

الظاهر والباطن:

بالإضافة إلى الاستعارة والتشبيه، هناك مواضع كثيرة في القرآن صعبة الفهم، وربما مبهمة غامضة إلى جانب أخرى لها معنى واضح «ظاهر» قد يخفي وراءه معنى «باطناً». وفي الوقت الذي لا تؤخذ فيه الاستعارات والتشابيه على حرفيتها، فإننا لا نجد الحالة نفسها في المعاني الباطنة.

يمكن أن يتصور المرء كيف أن القرآن يصبح مجالاً يمكن أن تسرح فيه باطّراد تأملات الباطنيين الوهمية غير الواقعية. وعلامَ نعتمد في فهمنا إذا خرجنا عن نطاق النص الخارجي الظاهر؟!. ونقرأ في المصحف الشريف: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ [الزمر: 39] بالتوافق مع الآية الثالثة من سورة البقرة التي تحث على الإيمان بالغيب. ولكن الأمر يختلف عندما يسمح أحدهم لنفسه بتجاوز النص القرآني الظاهر، والدخول في مجاهل الغيب عند تأويل القرآن.

ونجد هذه التأويلات الخفيفة المتوقعة غالباً في تفاسير الشيعة، والفرق الصوفية، ومحي الدين بن عربي أشهر مثالٍ على ذلك. وهذا بالضبط ما حذّر منه القرآن في الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿**وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ**﴾ [آل عمران: 7].

خواصٌّ قواعدية:

تتميز لغة القرآن ببعض الخواص القواعدية التي يجب أن تُراعى أثناء الترجمة. وفيما يلي بعض الأمثلة:

1- جمل استفهامية بلاغية غير مكتملة: حيث يجب في مثل هذه الأحوال، أن يتم القارئ هذه الجمل المقطوعة. مثال ذلك الآية 24من سورة الزُّمَر ﴿**أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾.

2- جملة زمنية غير مكتملة: تبدأ جمل كثيرة بـ «وإذ قال...» والمقصود هنا: وقتذاك أو في حينه أو عندما...

3- استخدام صيغة الماضي لما هو آتٍ في المستقبل: يمكن التعبير بصيغة الماضي عن الأحداث التي من المؤكد حدوثها مستقبلاً.

4- تغيير الفاعل في الجملة أو ما يسمى «الالتفات»: كثيراً ما يرد في القرآن انتقال مفاجئ من ضمير إلى ضمير آخر، وغالباً فيما يتعلق بذكر الله تعالى.

- من المتكلم إلى المخاطب ولكن لا يرد العكس.
- من الغائب إلى المتكلم ومن المتكلم إلى الغائب.
- من الغائب إلى المخاطب.
- من المفرد إلى الجمع. وكذلك
- بالنسبة إلى المخاطبين في الجملة.

ويمكن أن يكون هناك عدة تغييرات متتالية، كما هي الحال في الآيات 39-41 من سورة المعارج، كما يمكن أن تتغير الصيغة الزمنية للأفعال.

أمثلة:

- نرى في سورة الفاتحة أن الآيات 1-4 تذكر الله بصيغة الغائب (هو، لله) بينما ينتقل الخطاب اعتباراً من الآية الخامسة إلى صيغة المخاطب (إياك، اهدِنا...)
- نقرأ في الآية 21 من سورة يونس ﴿**إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾ وتليها الآية، مباشرة بالقول: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾.
- أما في الآية 27 من سورة فاطر، فيكون الانتقال بالضمير في نفس الآية: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ**﴾.

ليس في القرآن ما هو صدفة. لذلك لا يجوز أن نذهب مع تيودور نولدكه ومستشرقين آخرين للقول إن هذه التغييرات القواعدية هي استثناءات للقاعدة، بل يجب أن نقول مع جاك بيرك إنها خواص قواعدية للقرآن الكريم. وهكذا فمن الواضح أن هذا «الالتفات» الفجائي الذي ينقل الضمير القواعدي من صيغة إلى أخرى يؤدي مهمة بلاغية هدفها إحداث «صدمة» عند القارئ أو المستمع. ولابد من القول أيضاً إن هذا «الالتفات» يرد بشكل منهجي.

عندما يتكلم الله تعالى عن نفسه بصيغة المتكلم المفرد أو بصيغة الجمع التفخيمي: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ [الأعراف: 172] فإنما يؤكد بذلك على جلاله وقربه. وكلامه هذا تعبيري مشدَّد.

وحينما يذكر نفسه، جل وعلا، بصيغة المخاطب كقوله مثلاً «إلهكم، ربكم» متوجهاً إلى الآخرين، فإنما يكون التوكيد على مُتَلَقّي هذا الخطاب. ويكون كلامه تحريضاً نفسياً وتعبيراً عن الرغبة والإرادة.

وعندما يكون الكلام عن ذاته القدسية، جل وعلا، بصيغة الغائب المفرد «هو، الله» يكون القصد من وراء ذلك التركيز على الرسالة التي تريد إبلاغها للناس. فالله تعالى هو سبب الوجود، وكل ما يأتي به داخلٌ ضمن نطاق معرفته وإدراكه.

خواص لغوية:

1- المفردات.

إن لغة القرآن ليست غنية بالصفات والصيغ الزمنية المتعددة، فالخطاب القرآني في معظمه يأتي في صيغة المضارع أو الماضي البسيط. ولكنه من ناحية أخرى غني بالأفعال المبنية للمعلوم في الصيغ الثماني الممكنة للفعل في اللغة العربية، وغالباً ما ترد في صيغة المصدر «سامعون». كذلك ترد في القرآن تعابير في صيغة المبني للمجهول وفي صيغة المصادر الفعلية: «فإن حزب الله هم الغالبون». وبشكل عام فإن التعبير القرآني سهل ممتنع، ومفرداته مألوفة وليست كلغة بعض الشعراء الذين يغوصون في قعر اللغة لإخراج ماندر وما صَعُب من كلماتها، ويحاولون اشتقاق كلمات مستجدة. وهكذا على سبيل المثال فإن النص القرآني لا يحتوي إلا على خمسة عشر فعلاً رباعي المصدر، بينما كانت هذه الأفعال تعد

بالآلاف في الشعر الجاهلي. ولكن هذه البساطة والسهولة تخفي وراءها احتمالات متعددة من التفسير تصل إلى أعمق المعاني وأعقدها.

2- تكرار الكلمات المتشابهة أو ذات الجذر الواحد:

إن الاستخدام المتكرر لكلمات متشابهة أو ذات جذر واحد في جملة واحدة، له وقعٌ خاص في الأذن: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا** ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: 1] أو ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: 60].

3- الجناس:

الجناس والجناس الاستهلالي وكذلك الطباق والسجع من الأساليب الأدبية المستخدمة كثيراً في النص القرآني، مثال ذلك الآيتان الرابعة والخامسة من سورة الناس ﴿**الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ** ﴿٤﴾ **الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي**﴾ وقد ورد هذا الأسلوب أيضاً في أول ما أنزل من القرآن [العلق: 1-5] حيث وردت كلمات مثل: «خلق ـ علق، إقرأ ـ أكرم، علّم ـ يعلَم». والتي تتشابه كل اثنتين منها بنغماتها ونبراتها.

4- الحوار:

يلجأ القرآن في كثير من الأحيان إلى أسلوب الوصف الحواري، فالآية 46 من سورة النساء تحتوي على أربع جمل تعلّق الثانية منها على الأولى والرابعة على الثالثة. كذلك الآية 101 من سورة النحل فهي تتلاءم مع مخطط حواري على الشكل التالي أ.ب.أ.ب:

أ- وإذا بدّلنا آية مكان آية

ب- والله أعلم بما ينزل

أ- قالوا إنما أنت مفْترٍ

ب- بل أكثرهم لا يعلمون

5- العبارة المكررة:

هناك بعض الحوارات تتكرر فيها نفس العبارات نسميها اللازمة أو القرار، مع أن القرآن لم يقرأ مطلقاً كأدوار موزعة. وربما كان النموذج الأمثل لذلك سورة الرحمن حيث تتكرر الآية الكريمة: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ اثنتين وثلاثين مرة على شكل لازمة.

6- الأسلوب الخطابي الجذاب والتوكيد:

كثير من الجمل في آيات القرآن الكريم تبدأ بأحرف أو كلمات تدل على إثارة انتباه المستمع أو القارئ مثل «و» التي قد تعني حرف العطف، وقد تعني «لكن»، كذلك هناك «إنّ» و «قد» التي قد تعني في سياق النص «حقاً» أو «بالتأكيد» لتعطي نوعاً من التوكيد على الكلام.

7- «و»:

تبدأ الكثير من الجمل باللغة العربية بحرف العطف (و) وذلك لإيجاد ارتباط بالجملة السابقة. كذلك لا يرى العرب مانعاً من ضم واو العطف إلى «لكن» التي تفيد الاستدراك لتصبح «ولكن».

8- الإبهام:

إن الكثير من الكلمات لها أكثر من معنى وهذا شيء ليس غريباً أو مميزاً. إلا أن هناك بعض المفاهيم الأساسية في القرآن مثل «آية» و «دين» والتي قد تعني الدين بمعناه الضيق أو المعتقد أو التسليم أو

التماسك، أو القيامة (يوم الدين)، أو الطقس الديني، وهذا ما يتطلب ترجمة هذه الكلمات أو فهمها بشكل يختلف مع اختلاف سياق النص الذي ترد فيه.

كذلك فإن اللغة العربية تمتاز بأنها اللغة الوحيدة التي قد تعني فيها الكلمة الواحدة معنيين متعاكسين كهبوط الليل، وهذا ما يسبب التباساً في بعض الأحيان حيث قد تبدو آيتان متناقضتين ظاهراً لا حقيقة.

9- المترادفات:

لا يزال الجدل بين اللغويين قائماً فيما إذا كانت الكلمات المُتَرادفة في القرآن تحمل المعنى نفسه بدقائقه، لأن ما يبدو مترادفاً للوهلة الأولى قد تجده غير متطابق تماماً بنظرة ثانية متأملة. لذلك يجب أن يتجنب المرء مبدئياً أن يشرح مفهوماً قرآنياً بمفهوم آخر.

10- الكلمات غير الدالّة على الجنس:

ليس للفظ الجلالة «الله» في اللغة العربية جنسٌ محدّد، مع أن الله تعالى يتكلم عن نفسه في القرآن بصيغة المفرد الغائب «هو» إلا أن هذا لا يجوز أن يقود إلى الاعتقاد أن الله كائن ذو جنس معين.

كذلك هناك بعض الكلمات الضرورية لفهم القرآن، والتي لا جنس واضح لها «كالزوج» مثلاً.

11- الأشخاص المخاطبون:

يتوجه الله تعالى في خطابه في القرآن الكريم بشكل أساسي إلى المجموعات التالية:

- إلى الخلق كافةً «أيها الناس»
- «أيها المسلمون» أو «أيها المؤمنون»
- ويخاطب النبي بقوله: «أيها النبي» أو «أيها الرسول»
- «أيها الكافرون»
- «أيها المشركون»
- «أيها المنافقون»

ويمكن أن يكون المسيحيون من فئة المشركين، إذا كانوا من الذين يعتقدون بالثالوث الأقدس على أن كل واحد منهم إله. أما المسيحيون الذين يعتقدون بإله واحد في ثلاثة أقانيم فليسوا من المشركين في نظر القرآن.

أما «الكافرون» فهم مجموعة من المغضوب عليهم. وكلمة «الكافر» تعني من يغطي الحقيقة، وبالتالي من يعرفها ويرفض الاعتقاد بها.

وسّيان كان المؤمنون أو الكافرون المخاطبين، فإن الخطاب يشمل الرجال والنساء منهم على السواء، اللهم إلا آية واحدة تفرق بين الجنسين في الخطاب:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَات وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَات وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَات وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَات وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَات وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَات وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَات وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَات وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: 35].

الحروف المقطعات:

تبدأ تسع وعشرون سورة من سور المصحف الشريف «بأحرف مبهمة غير مترابطة» تسمى «الحروف المقطعات»، تكون حرفاً واحداً في سورة ص وسورة ق وسورة القلم أو تكون في مجموعات تتكون غالباً من حرفين إلى أربعة أحرف، وتعتبر آية قائمة بحد ذاتها. وسورة الشورى تبدأ بآيتين كل منهما تتكون من مجموعة منفصلة من الأحرف المقطعات ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾. أما سورة مريم فتنفرد عن السور الأخرى بأنها تبدأ بخمسة أحرف ﴿كٓهيعٓصٓ﴾. وهذا العدد هو أكبر عدد ممكن لمصدر الكلمات في اللغة العربية، كما أنه من الملفت للنظر أن عدد هذه الأحرف المقطعات الواردة في القرآن هو أربعة عشر، وهي من حيث ترتيبها تأتي في منتصف الأبجدية العربية تماماً.

كذلك تبدأ سورتا غافر والأحقاف (46،40) بالحرفين نفسهما ﴿حمٓ﴾، كما تبدأ سور يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحِجر (10، 11، 12، 14، 15) بالأحرف الثلاثة نفسها ﴿الٓر﴾. ثم هناك حالتان حولهما جدل فيما إذا كان الحرفان يعتبران مجموعة من الحروف المقطعات في سورتي طه ويس لأنه يمكن قراءة هذين الحرفين في هاتين الحالتين على أنهما من النص نفسه وتعنيان «يأأيها الإنسان».

لم يعط النبي ﷺ شروحاً لهذه المقطعات، وكما يبدو فإن أصحابه لم يسألوه عن معناها. وبعضهم يتوقعون خلف هذه الحروف علماً واسعاً. وليس من المعقول مدى ما وصل إليه خيال المسلمين ــ وخاصة

مفسرو القرآن كالطبري ـ من أجل شرح هذه المقطعات وفك رموزها. وبالمقابل هناك بعض العلماء ـ مثل «حميد الله» في عصرنا الحاضر ـ يأخذونها بكل بساطة على ما هي عليه دون أن يبحثوا عما يمكن أن تعنيه. ولكن الجميع متفقون اليوم مع يوسف علي ومحمد أسد على أن هذه الحروف لا تخفي سراً وراءها وليست على أية حال إلا لغزاً لم يجد حلّه.

ونوجز احتمالات تفسيرها بالحالات التالية:

- مجرد حروف أولى لأسماء كتبة المصحف. إلا أن هذه الفرضية التي يتبناها المستشرقون بشكل أساسي تتعارض مع حقيقة أن الرسول ﷺ قد اعتبر هذه الحروف جزءاً من مكوّنات القرآن وكان يتلوها.

- إشارات إلى قيم الحساب العددي لبعض السور المشكوك فيها. وهذه بالطبع وجهة نظر باطنية غير إسلامية.

- اختصارات لصفات أو أسماء إلهية، وبناء على ذلك يمكن فهم حرف الراء على أنه اختصار لكلمة الرائي بمعنى البصير. أما المتصوفة كابن عربي مثلاً فلم يكن لديهم أية مشكلة في فهم «الم» على أنها اختصار لكلمات «الله العقل، محمد» وقد رأوا في «حم» معنى «حبيبي محمد». حقاً ليس للخيال حدود!!

- مجرد عملية كتمان صوفي لبعض معاني السورة المعنية. وهذا برأينا ليس إلا من قبيل «تفسير الماء بعد الجهد بالماء» أو «تفسير سرّ بآخر».

- قَسَمٌ على صحة مضمون السورة، وهذا ما يراه تيودور نولدكه. ويؤيد ذلك ربما حقيقة أن السور الصغيرة التي تبدأ بِقَسَم لم توضع هذه الحروف في مطالعها، وكذلك الحال في السور القصيرة الأخرى.

- أسماء مبدئية للسور. ولكن لماذا بقيت بعد إعطاء السور أسماءها النهائية.

- وسيلة بلاغية للفت الانتباه وإثارة الاهتمام. وهذا التفسير بدوره شرح غير لائق بالقرآن الكريم.

- وهناك أخيراً ما أتى به كينيث كراغ على أن ذلك «مادة خام رمزية للفصاحة».

وقد عادت أنغيليكا نُويفيرت في وقتنا الحاضر للبحث بعمق فيما إذا كانت لهذه الحروف المقطعات وظائف أدبية كمفتاح لفهم مضمون النص القرآني، وفيما إذا كانت تفيد في تموضع السور التي تبدأ بها. وقد لفت الانتباه منذ وقت طويل أن كل هذه السور التي تبدأ بالحروف المقطعات تتطرق في مضمونها إلى ظاهرة الوحي.

ولكن هناك بعض المسلمين الذين لا زالوا يعتقدون أن التعامل مع هذه الحروف المقطعات يجب أن يتم على أنها جزء من الآيات المتشابهات التي تحمل أكثر من معنى، والتي لا يعرف تأويلها إلا الله ـ كما ذكر أحمد فون دنفر ـ وهذا ما أشير إليه في الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿...**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**...**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**...﴾.

إعجاز القرآن:

«لو كان القرآن يُقارن بالكتب الأخرى لما كانت لديه القدرة على التأثير على العرب كما هو واقع الحال»

(رشيد رضا، الوحي المحمدي)

القرآن من حيث تنزيله ومضمونه هو المعجزة التي جاءت لتصديق نبوة النبي محمد ﷺ، وهي المعجزة الوحيدة في الإسلام التي يعترف بها ويقرها كل المسلمين. ففي الآية 88 من سورة الإسراء يعلن القرآن إعجازه وعدم القدرة على الإتيان بمثله: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِه...**﴾. كما يتحدى القرآن في «آيات التحدي» الناس تكراراً ومراراً على أن يأتوا بسورة من مثله: (البقرة23، يونس38) ويؤكد أنهم لن يستطيعوا ذلك: (هود13، القصص49، الطور 34). وبغض النظر عما إذا كان هذا الإعجاز متعلقاً بالشكل الأدبي واللغوي للنص، وبالتالي بجمالية لغته، أو كان ذلك عائداً للصدقية في أقواله ولجاذبيته المنطقية، فإن الحقيقة التي لا مراء فيها أنه ما مِنْ كتاب آخر غير القرآن الكريم استطاع أن يؤثر على تاريخ الإنسانية منذ وجوده، ولا يزال يطبعها بطابعه حتى اليوم، بخلاف الإنجيل الذي فقد سِحره. ولا أستطيع هنا إلا أن أؤكد ما قاله نافيد كيرمان من أن القرآن كتاب يأخذ بالألباب بأسلوبه الساحر الأخاذ المنطوي على الأسرار ويقدم «برهاناً جمالياً على الحقيقة» في عقيدة تهدف إلى إسماع صوت الحق.

كثيـر من المسلمين لا يكتفون بإعجـاز القرآن[1] في مصدره وتأثيره التـاريخي، بل يعـمدون أيضـاً إلى برهان إعـجازه فـيـما يتـعلق بمحـتـواه وبأسلوبه الأدبي، من حـيث أسلوبه وكمـاله وعـدم تناقـضـه، وتوافـقـه مع العلوم الطبيعية وحكمة تعاليمه. ألم يقل القرآن عن نفسه؟: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: 38] ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل: 89].

(1) تجدر الإشـارة إلى اهتمـام العرب بإعجـاز القرآن والتـأليف فيه من القرون الوسطى مثل:
تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، جامع البيان في وجوه تأويل القرآن للطبري، إعجاز القرآن للباقلاني، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (المترجم).

مخلوق / غير مخلوق؟

هل القرآن أزلي؟

لا أسأل عن ذلك!

هل القرآن مخلوق؟

لا أدري!

أما أنه كتاب الكتب

فأعتقد أنه كذلك وهذا واجب المسلمين.

(يوهان فولفغانغ فون غوته ـ الديوان الغربي الشرقي)

يقول القرآن إن أصله الذي يسميه «أم الكتاب» موجود لدى الله تعالى «في لوحٍ محفوظ» وهو مصدر الوحي الإلهي (آل عمران 7) ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، (الرعد39) يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، (الزُخرف4، الواقعة 78) وهذا الاعتقاد هو أساس القناعة السائدة بأن كلمة الله أزلية أيضاً، أي أن كلمة الله موجودة معه منذ الأزل وليست قابلة لأي تحوير أو تغيير.

لقد أدّت فرضية عدم خلق القرآن في القرن التاسع الميلادي في بغداد مركز الخلافة إلى جدال ديني فلسفي حاد، كان له آثاره المأساوية حتى وقتنا الحاضر. كما حاول العديد من الخلفاء العباسيين

أن يفرضوا قناعاتهم بصحة الرأي العقلاني لمدرسة المعتزلة القائلة بخلق القرآن كقناعة دينية رسمية للدولة، وحكموا بالإلحاد على من لم ينضم لقناعاتهم.

أما ردّة فعل المدرسة الأشعرية التي استطاعت أن تجعل أحد الخلفاء اللاحقين يعتمد نظريتهم، فقد كان لها تَبِعاتٌ مؤسفة، حيث إن الفلسفة التأملية (الميتافيزيقا) والاستخدام العقلي للمفاهيم الدينية أصبحت أموراً مريبة لدى كثير من المسلمين، وتكاد تخرج المقتنعين بها عن الإسلام (كما يقول عمر شبرا). ولا غرو إذا أطلق أشهر أشعري، وهو أبو حامد الغزالي المتوفى سنة 1111م، على كتابه الفلسفي الأهم اسم «تهافت الفلاسفة».

كانت بعض المبالغات من التبعات الأخرى عميقة الأثر على هذا الجدال. فصحيح أن القرآن لم يُعتبر حلولاً جسدياً لله تعالى، فيه ولكن البعض اعتبره حلولاً معنوياً بمعنى أن الله تعالى موجود في كلمات كتابه الكريم.

إلا أن المدرستين المعتزلية والأشعرية انطلقتا من أن القرآن هو كلمة الله. ولا نستطيع اليوم أن نتصور أبعاد هذا الجدال في تلك الأيام بشكل كامل، ولكن يكفي للدلالة على حِدّته أنه كان سبباً في دخول بعض الفقهاء المعتبرين كالإمام ابن حنبل، إلى السجن.

وليس من العسير اليوم أن نعتبر وجهتي النظر محقتين، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن القرآن غير المخلوق، والقرآن الذي دخل في التاريخ البشري شيئان مختلفان. إذ يتجلى الفرق في اختلاف التعبير الإلهي عن اللغة التي يستخدمها بنو البشر.

إن القرآن موجود في ثلاثة مستويات: اللغة والكتابة والمضمون. وهو يشارك الله ـ جلّ الله ـ أزليته في مضمونه فقط.

تأويل القرآن

المنهجية:

إن كل من يحيد عن خط صحابة رسول الله والتابعين في تأويل القرآن، هو على خطأ.

(ابن تيمية)

1- الثقافة:

لم يسمح الإمام المتشدد ابن تيمية ـ في القرن الثاني عشر الميلادي ـ بتأويل القرآن إلا عبر طرق ثلاث: أ-من القرآن نفسه، ب- ما ورد من صحيح سنة الرسول ﷺ، جـ- ماورد من الصحيح عن صحابة الرسول وتابعيهم الأُوَل. لقد سمح ابن تيمية بالتأويل بالقياس على ماورد في القرآن، ولكنه كان يرى أن التفسير المنطقي العقلي، أو ما يسمى التفسير بالرأي والذي كان يتّبعه معاصره الزمخشري، هو محض هرطقة وإلحاد. وهذا ما جعله في مواجهة حادة مع المتصوفين الذين لم يكن يوافقهم الرأي أيضاً، وخاصة في اعتقادهم المتطرف بأن كلمة الله الأبدي يجب أن تكون أبدية أيضاً في معانيها المختلفة.

بعد ذلك بثمانية قرون ذكر الشيخ محمد عبده (المتوفى1905)، من أتباع الفلسفة العقلانية الحديثة، في تفسيره للقرآن «تفسير المنار» والذي لم يكتمل: «إن الله لن يسألنا يوم الحساب عن فهم الآخرين للقرآن، وإنما سيسألنا عن موقفنا الذاتي ومفهومنا الشخصي لذلك».
إن هناك عوالم عديدة بين هذين الرأيين.

كان موقف الشيخ محمد عبده ثورياً حتى وفاته، ويتطابق هذا الموقف اليوم مع الموقف الشعبي الذي لا يخلو، من خطر من أن لكل مسلم الحق، بل ومن واجبه أيضاً، أن يحاول الغوص بنفسه في تأويل القرآن.

2- التفسير الحرفي:

لا يزال هناك مسيحيون ومسلمون متدينون يقولون إن نصوصاً كالإنجيل والقرآن لا يمكن أن تُؤخذ وتُتَّبع "بحرفيتها" دون أي تأويل. ولكنهم ينسون أن فهم كل نص، لابل كل كلمة، عبارة عن خلاصة تفسير «لاشعوري». ومن هذه الناحية فإن قراءة النص القرآني تخضع لمبادئ قراءة النصوص الأدبية العادية مع أنه ليس نصاً أدبياً عادياً.

3- أصول التفسير:

يضع القرآن أصول تفسيره الذاتي بمعنى أن «القرآن يفسر بعضه ببعضه»[1] إلا أن بعض الكلمات الأساسية قد لا ترد في القرآن إلا مرة واحدة. مثال ذلك كلمة «الصمد» في سورة الإخلاص ولذلك لا يتضح معناها من خلال مواقع أخرى من النص القرآني.

ومن ناحية أخرى فإن القرآن يحذر من نزع بعض الآيات من مكانها، لأن فهم كل آية يشترط إحاطة شاملة بالموضوع.

وأخيراً فإن القرآن نفسه يضع أصول التعامل مع المواضع المبهمة أو التي قد تبدو متناقضة.

---

(1) ولعلّ أهم تفسير معاصر أخذ بتفسير القرآن بالقرآن تفسيرُ (أضواء البيان ـ تفسير القرآن بالقرآن) للشنقطي (المترجم).

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: 7].

إن المسلمين الشيعة لا ينهون الجملة ما قبل الأخيرة في هذه الآية الأساسية بعد كلمة «الله»، حيث يقرؤونها على الوجه التالي: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العالم». وبذلك يريد المسلمون الشيعة أن يعبروا عن اعتقادهم «بأن أحفاد الرسول الكريم من أئمة أهل البيت»، وهم الراسخون في العلم، يستطيعون فهم هذه المواضع المبهمات المتشابهات.

4- أسباب النزول:

يتطلب التفسير الصحيح معرفة الترتيب الزمني الصحيح لنزول الآيات القرآنية المختلفة التي تتناول موضوعاً واحداً.

ويكون ذلك ضرورياً على وجه الخصوص في الآيات التي تحتوي على الأحكام الشرعية، وعند ذلك يمكن الاستفادة من التصانيف القانونية الرومانية في قوانين عامة وخاصة، في تفسير القرآن، حيث إن قانوناً عاماً لاحقاً يلغي قانوناً عاماً سابقاً، ولكن ليس من الضروري أن يلغي قانوناً خاصاً سابقاً. وبالمقابل فإن قانوناً خاصاً لاحقاً يعدل قانوناً عاماً سابقاً، ولكنه يلغي قانوناً خاصاً سابقاً.

إن فقهاء المسلمين يستخدمون هذه الأدوات لتفسير القرآن، ولكنهم غالباً ما يجهلون النقطة الأساسية وهي ما الذي أُنزل من القرآن سابقاً ولاحقاً. وإيضاح ذلك هو مهمة علم أسباب التنزيل. إلا أن ابن تيمية أشار إلى أن التنزيل قد يكون له أسباب متعددة في بعض الحالات.

لكنه من المبالغة أن نقول إن تفسير القرآن يتم في ضوء أسباب التنزيل حصراً كما لو أنها هي العامل السببي للتنزيل، أو أن معاني الآيات تقتصر على أسباب تنزيلها. وبغض النظر عن «خصوص السبب» وبالإضافة إلى منطوقها الزمني، فإن التنزيل يحتوي عادة على توجيهات هامة تتجاوز الزمان بمضمونها. ويمكننا أن نقول إن أسباب التنزيل هي مواضع التقاطع بين المطلق والزمني. وهذا يتضح بشكل جيد على مثال زواج الرسول الكريم ﷺ بزينب بنت جحش (الأحزاب37). حيث اتُّخذ هذا الزواج دلالة على أن التبني لا تكون له تأثيرات عائلية وإرثية.

5- العمل الجماعي:

نرى مما سبق أن على من يريد تفسير القرآن أن يستخدم في تفسيره للنص القرآني وسائل مختلفة تعتمد على معايير أدبية ولغوية ونصية، مع مراعاة معرفة علم الدلالة اللغوية العربية للغة القرن السابع الميلادي. هذا بالإضافة إلى دراسة السيرة النبوية وإلى الحديث الشريف، وما ورد عن الصحابة من فهمهم للقرآن والعودة إلى التفاسير السابقة، واستخدام المعارف العلمية الحديثة والتساؤلات

العصرية الممكنة. وبما أن المعرفة المطلوبة لتفسير القرآن واسعة جداً، فإننا نعتقد أن العمل على تفسير القرآن في الوقت الحاضر يحتاج إلى مجموعة من العلماء الاختصاصيين في المجالات المختلفة.

القرآن والسنة:

التفسير هو المهمة الأساسية للسُنّة.

والمُفَسَّر أعلى قدراً من المُفَسِّر.

(طه جابر العلواني)

بهذا نصل إلى الموضوع المحوري ألا وهو علاقة القرآن بالسُّنَّة.

كان لشيخ الأزهر الأسبق جاد الحق علي جاد الحق رأي متطرف في هذا الموضوع، إذ كان يرى أن القرآن والسنّة مصدران متساويان للشريعة الإسلامية، وكلاهما متجذّر في الإلهي. فالقرآن كلمة الله وهو قدوة النبي الذي «يعيش القرآن». كذلك فإن الله تعالى أمر المسلمين بطاعة رسوله في القرآن الكريم لأن سلوكه وأخلاقه إلهام من الله تعالى. وهكذا فإنه من الممكن ـ حسب وجهة النظر هذه ـ أن تكون السنة قد عطّلت بعض الأحكام الواردة في القرآن كعقوبة الزنى على سبيل المثال.

وعلى العكس من ذلك يعتبر العديد من المسلمين أن القرآن هو المصدر الأوّلي الوحيد للإسلام، خاصة وأنّ هناك بعض الشكوك حول صدقية رواية بعض الأحاديث الشريفة، وهذا غير وارد البتة بالنسبة للقرآن الكريم.

ويمثل هذا الاتجاه طه جابر العلواني مدير مدرسة الدراسات الإسلامية والاجتماعية في ليزبورغ، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية. وهو يرى أن المهمة الأساسية، لا بل الوحيدة للسنة، هي تفسير القرآن الكريم وتأويله، لا تغيير بعض أحكامه أو تعطيلها. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنه لا يجوز أن يكون هناك أي تناقض بين القرآن والسنة، فما أتى في السنة يُعرض على القرآن فما وافقه كان صحيحاً، وما لم يوافقه يُضرب به عرض الحائط.

يجب أن تبقى هذه الإشكالية المحتملة أمام أعين من يقرأ مجموعات الحديث الشريف التي تتعلق بكلام الرسول وعمله وصبره وبخاصة ما كان منها يشير إلى بعض آي الذكر الحكيم بشكل مباشر. ويظهر ذلك على سبيل المثال في الكتاب الستين من صحيح البخاري والذي يقع تحت عنوان «كتاب التفاسير». ونرى في هذا الكتاب أحاديث للرسول الكريم تشرح 358 آية من القرآن، وهذا ما يعادل 5.7 بالمئة من مجموع الآيات.

إلا أنه يجب ألاّ يغيب عن الذهن أن هناك بعض الأمور الأساسية التي لم يفصلها القرآن، وخاصة فيما يتعلق بتفاصيل الصلاة والصوم والحج. ويمكننا أن نقول دون مبالغة، إن الإسلام لولا السنّة الشريفة لأصبح نوعاً من الإيمان بالله، والاعتقاد بأنه العلّة الأولى ولكنها لا توحي. وهذا ما ذهبت إليه الكنيسة المسيحية التوحيدية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وتتجلّى أهمية السنّة في تفصيل ما لم يفصله القرآن أكثر من أهميتها في تفسيره.

ترجمات القرآن:

النص العربي للقرآن الكريم هو ما يطلق عليه اسم "القرآن". ويعتقد المسلمون أن ترجماته إلى لغات أخرى ليست مُرضية أو مقنعة، فكل ترجمة هي في الحقيقة تفسير يقلل الكثير من تنوّع المعاني، لأن الكلمات لا يمكن أن تتطابق تماماً بين لغتين اثنتين.

لذلك كانت أولى ترجمات القرآن الكريم من قبل المسلمين في القرن الثامن عشر بعد ألف ومئة عام من جمعه. وقد نظر المسلمون ولا زالوا ينظرون بعدائية إلى الترجمة التي وضعها شاه ولي الله دهلوي (المتوفى سنة 1762) في الهند باللغة الفارسية. وقد تبعه في ذلك ابناه رفيع الدين وعبد القادر، وترجما القرآن إلى لغة الأوردو وهي لغة المسلمين الهنود. ولم تتوفر نسخة مطبوعة من هذه الترجمة إلا في سنة 1894.

أما خارج العالم الإسلامي فلم تتوقف الترجمة، إذ يقال إن أول ترجمة للقرآن كانت في القرن التاسع إلى اللغة اليونانية ولم تُحفظ هذه الترجمة. لكن الترجمة الأولى إلى لغة غربية، والتي لا تزال محفوظة فهي الترجمة اللاتينية التي تعتبر نتاجاً للغزوات الصليبية. وقد تمت هذه الترجمة سنة 1143 في طليطلة بناءً على توجيه من بطرس فينيرابيليس، رئيس دير كلوني والمتوفى عام 1156. أما من قام بالترجمة فكان هيرمان فون دالماتيا وروبرت فون كيتون.

مرت أربعمئة عام قبل أن يتولى تيودور بيبليانر طباعة هذه الترجمة سنة 1543 في بازل بناءً على طلب من مارتين لوثر الذي كتب مقدمة لها. أما الخلفية وراء ذلك فكانت الحروب التركية في أوروبا هذه المرة. ثم تتالت الترجمات بكثرة منذ ذلك الوقت، وترجم على الأقل إلى خمس وستين لغة. كما يوجد في الوقت الحاضر ما يزيد على أربعين ترجمة إلى الإنكليزية وهي تزداد بمعدل ترجمة جديدة كل عام.

جرت أولى محاولات ترجمة القرآن الكريم في ألمانيا والاهتمام المركز به من قبل يوهان ألبرِخت فيدمانشتيتر (1506-1557) في مدينة نورنبرغ بالاعتماد على الترجمة اللاتينية التي نشرت سنة 1543. وبموازاة ذلك نشر غِويُوم بوستيل (المتوفى سنة 1581) في نفس العام ترجمة غير كاملة باللغة الفرنسية بالاعتماد على نسخة عربية. وقد تلا ذلك سنة 1616 النسخة الألمانية الأولى الكاملة التي قام بها سالومون شفايغر في مدينة نورنبرغ أيضاً. إلا أن هذه الترجمة اعتمدت على نسخة إيطالية تمت ترجمتها بدورها عن الترجمة اللاتينية الأولى وليس عن الأصل العربي. كذلك اعتمدت الترجمة الألمانية الثانية التي قام بها يوهان لانغِه سنة 1688 في هامبورغ، على نسخة فرنسية مترجمة عن العربية.

وهكذا لم تظهر الترجمة الألمانية الأولى للقرآن الكريم عن العربية مباشرة إلا في عام 1722، وقد قام بها دافيد فريدريك ميغيرلين في فرانكفورت. وهذه الترجمة الألمانية الأولى عن الأصل العربي والتي

عرفت باسم «الإنجيل التركي» كانت النسخة التي اعتمد عليها يوهان فولفغانغ فون غوته في دراسته للقرآن الكريم. كما كانت هناك ترجمات أخرى غير كاملة مسجوعة ومقفاة قام بها كل من يوزف هامرـ بورغشتال (1808-1810) وفريدريك روكرت (1888) وكذلك الترجمة التي أصدرها ماكس هينينغ المدعو سابقاً أوغست مولر سنة 1901 في لايبزيغ.

أما في الوقت الحاضر فهناك عدد كبير من ترجمات القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية قام بها باحثون يهود ومسيحيون ومسلمون ومستشرقون. وقد عفا الزمن على الترجمتين اللتين قام بهما الباحثان اليهوديان لودفيغ أولمان (1840) ولا تساروس غولد شميت (1920) أما من ترجمات المسيحين المستشرقين فقد برزت كل من ترجمة رودي باريت (1979) وترجمة عادل تيودور خوري (1987) لكن ترجمة باريت صعبة القراءة والفهم بسبب دقتها المبالغ بها وكثرة الأقواس الموضوعة في النص.

لقد مضى زمن طويل قبل أن يبدأ المسلمون بترجمة القرآن إلى اللغات الغربية، وقد دفعتهم إلى ذلك قناعتهم أن الترجمات التي يقدمها رجال الدين المسيحيون غير مقبولة بالنسبة للمسلمين. وذلك بشكل خاص لأن أغلب هؤلاء الغربيين انطلقوا بترجمتهم من اعتقادهم بأن الرسول محمداً ﷺ هو الذي كتب القرآن. فإذا أراد المرء أن يعرف كيف يفهم المسلمون قرآنهم ـ وهذا هو الهدف الصحيح ـ كان عليه أن يقرأ ترجمة شخص مسلم. وأهم الترجمات الألمانية للقرآن الكريم التي قام بها باحثون مسلمون والمنتشرة حالياً هي التالية:

- محمد أحمد رسول : «القرآن الكريم ومعانيه التقريبية في اللغة الألمانية» ورسول إمام من أصل مصري، أما ترجمته فلا تحتوي على أية شروحات، وقد اعتمد بشكل واضح على ترجمة كل من ماكس هيننغ ورودي باريت.

- فاطمة غريم وآخرون: «معاني القرآن».

- أحمد فون دينفر : «القرآن، كتاب الإسلام المقدس في ترجمة ألمانية». لقد قدم فون دنفر، الذي كان لسنوات طويلة مديراً للمركز الإسلامي في ميونيخ، ترجمة بلغة ألمانية عسيرة الفهم، ولا تحتوي إلا على شروحات بسيطة. كما أنه حافظ على التركيب العربي للكلمات والجمل.

- ماكس هينيغ : «القرآن». وقد قام مؤلف هذا الكتاب، مراد فيلفريد هوفمان بتنقيح هذه الترجمة بشكل إسلامي وقدم بعض الشروحات فيها. وتحتوي بعض طبعاتها على النصين العربي والألماني. وقد ظهرت الطبعة الثالثة من هذه الترجمة المنقحة سنة 2001 عن دار ديدريخ للنشر.

- مصطفى ماهر: «مختارات من تفاسير القرآن الكريم». وهي ترجمة شبه حرفية صدرت في القاهرة سنة 1999 والمترجم هذا هو مصري مختص بأدب اللغة الألمانية. والجدير ذكره أنه أدخل في هذه الترجمة هوامش عديدة باللغة العربية.

- أميـر زيدان: «التفسيـر ـ شروح للنص القـرآني على قاعدة لغوية إسـلاميـة» (2000) وهـذا المترجم اختـصـاصي بالـعلوم الطبيـعيـة ومن أصل سـوري. وهـو يتـجنـب في ترجـمـتـه الاسـتـفـاضـة في الشـرح ويتـحـاشـى ترجـمـة الكثـيـر من مـصطلحـات الشـريعـة الإسلامية إلى اللغة الألمانية[1].

تفسيرات عربية للقرآن.

مع أن القـرآن الكريم مـفـهـوم بنفسـه وهـو أفـضـل مـن يشـرح نفسـه، فقـد كان هنـاك حـاجة مـاسة لتفـاسير يقـوم بهـا فقـهـاء مختـصـون. وقبل أن يعـمل أي فـقيـه على مـحـاولة تفسيـر القـرآن وتأويله لابد من توفيـر المعلومات التالية قبل كل أمر آخر:

- المعاني المختلفة للكلمات والخصائص القواعدية.
- المعـرفـة بالحـديث الشـريف ومـا ورد فيـه من تفسـيـر وشـرح لآي الذكر الحكيم.
- العودة إلى ما كان يفهمه صحابة الرسول من النص القرآني.
- معرفة المنابع المشتركة بين القرآن والإنجيل.
- أصول القرآن من حيث معرفة مكان التنزيل وزمانه وأسبابه.

---

(1) هذا وقد شـاعـت اليوم التـرجـمـة الصـوتيـة التي تنقل اللفظ العربـي بالحـرف الأجنبي، والتي تسـعـى إلى تسـهـيل قـراءة القـرآن بلفظه على المسلمين غـيـر الناطقين بالعربية، أما التـرجمات المشار إليها فيشار إليها على أنها ترجمات للمعاني. (المترجم)

وفي الحقيقة فإن الحاجة الماسة إلى التفاسير المكتوبة للقرآن لم تظهر إلا بعد وفاة أفضل العارفين بالقرآن من صحابة النبي الكريم ﷺ مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعائشة بنت أبي بكر، الذين كانوا يؤدون قبل رحيلهم دور التفسير الحي للقرآن الكريم.

ونذكر فيما يلي أهم أحد عشر تفسيراً يدل ترتيبها الزمني على أن تفسيراً هاماً كان يصدر كل قرن تقريباً:

- الطبري: (المتوفى923) وهو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وتفسيره: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن». هذا التفسير هو أول تفسير وقد أصبح كلاسيكياً، إذ إنه تفسير للقرآن آية بآية ويمتد في ثلاثين مجلداً[1]، وتتم ترجمته إلى الإنكليزية حديثاً. وهذا التفسير هو من حيث منهجيته تفسير بالمأثور ويعود إلى شواهد لغوية من الشعر الجاهلي.
- التُستَري: وهو سهل بن عبد الله أبو محمد التُستَري المتوفى سنة (896) وكتابه: «تفسير القرآن العظيم». وكان هذا أول تفسير من وجهة نظر صوفية إذ كان التُستَري مقتنعاً بأن الرسالة الحقيقية للقرآن رسالة باطنة، ولا تفهم إلا بالكشف الذي لا يصل إليه إلا العارفون بالله الطاهرون السائرون على طريق الدراويش الصوفية.

(1) صدر عام 2001 كاملاً في ستة وعشرين مجلداً بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي عن دار هجر. (المترجم)

- الزمخشري: (المتوفى 1140) وهو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. وكتابه: «الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل». وقد نهج فيه صاحبه نهج التفسير بالرأي على طريقة التفاسير الهامة العقلية المنطقية التي اتبعتها مدرسة المعتزلة الفلسفية في بغداد (ما بين القرن التاسع والثاني عشر). ومع أن الزمخشري كان فارسياً، لكنه كان في زمانه أعلم الناس باللغة العربية، ولا يزال حتى الآن من أهم واضعي معاجم اللغة العربية.

- التبريزي: وهو أبو علي فضل بن حسن التبريزي المتوفى سنة 1143 . وتفسيره أول تفسير للقرآن الكريم من وجهة نظر المسلمين الشيعة. وقد عكس كل معتقدات الطائفة الشيعية الفارسية في تفسيره للقرآن الكريم.

- الرازي: وهو فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي المتوفى سنة 1209 وكتابه: «التفسير الكبير». وكان هذا التفسير أول تفسير ضخم واسع لعالم مسلم شامل الثقافة، والذي استخدم علمه الواسع للتوفيق بين النص القرآني من جهة والفلسفة وعلم الفلك والعلوم الطبيعية الأخرى.

- البيضاوي: وهو ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة 1291. ويحمل تفسيره اسم: «أنوار التأويل». وتفسيره هذا لا يزال حتى اليوم يلقى قبولاً واسعاً لأنه جمع الجيد والأفضل من الزمخشري والرازي وتجنب مبالغاتهما.

- ابن عـربي: (مـتـوفى 1240) وهو مـحي الدين بن عـربي وله: «تفسير القرآن الكريم». وتأويله هذا معرفي يخرج عن النمط الفقهي الأصولي، وقد كان ابن عربي من أشهر متصوفي القرون الوسطى كما كان يلقب بـ «شيخ الأندلس الكبير» وكان يتهم بأنه يعتقد بفكرة الحلول.

- ابن كثير: (متوفى1387) وهو أبو الوفاء إسماعيل بن عمرو بن كثير وتفسيره يحمل اسم: «تفسير القرآن العظيم». وابن كثير هو أيضاً مؤرخ كبير ومختص بالحديث الشريف، وقد وضع تفسيره للقرآن آية بآية مستخدماً الحديث الشريف لذلك ومعطياً الإسناد الكامل. ويتم العمل منذ عام 1996 حتى الآن على ترجمة إنكليزية في ثلاثين مجلداً تنشرها دار الفردوس للنشر في لندن.

- الجلالين: نسبة إلى الفقيهين اللذين أخرجا هذا التفسير سوية، وهما جلال الدين المحلّي (المتوفى1459) وجلال الدين السيوطي (المتوفى1505) واسم الكتاب: «تفسير الجلالين». وقد اكتسب هذا التفسيرشعبية كبيرة بسبب اختصاره وتركيزه.

- أما «تفسير المنار» فقد أعده كل من محمد عبده (متوفى1905) ومحمد رشيد رضا (متوفى1935). وهذا التفسير موضوع في اثني عشر مجلداً ولم يكمله صاحباه. وقد ابتدأ به شيخ الأزهر آنذاك محمد عبده بمنهجيته العقلانية المنطقية الجديدة، وكان

بداية لعملية إصلاح وتطوير لـلإسلام في القرن العشرين. وقد رفض محمد عبده رفضاً قاطعاً أن يأخذ بما توصل إليه المفسرون الأُوَل دون نقد ودراسة وتمحيص، كما انتقد المبالغة السابقة في الأوجه اللغوية والقواعدية في نص القرآن الكريم.

- ثم وضع سيد قطب (1890-1966) تفسيره تحت عنوان: «في ظلال القرآن». ويعتبر قطب الأب الروحي والمفكر الأوّل في زمانه لجماعة الإخوان المسلمين في مصر وقد أعدمه عبد الناصر. إلا أنه كتب في السجن قبل ذلك تفسيره في خمسة مجلدات، وقدم دراسة عميقة للوثنية الجديدة في المجتمعات الغربية، كما أبرز في دراسته هذه الشخصية الذاتية الاستقلالية السياسية والاجتماعية الثورية في القرآن الكريم.

وننصح في هذا المقام كل من يريد الاطلاع من وجهة نظر تاريخية على التنوع الفكري لتفاسير القرآن، أن يعود إلى كتاب محمود أيوب: «القرآن ومفسروه» والمنشور باللغة الانكليزية.

تفسيرات غير عربية للقرآن:

تعتبر التفسيرات التالية أهم التفسيرات التي صدرت في العالم غير العربي:

- يوسف علي (متوفى 1953): «القرآن الكريم ـ ترجمة وتفسير» 1934 (باللغة الإنكليزية). وقد أعيدت طباعة هذا التفسير الذي أصدره المسلم الهندي الناطق بالإنكليزية 31 مرة حتى عام

1989. وقد صدرت بعد ذلك طبعتان منقحتان في كل من الولايات المتحدة الأمريكية (مؤسسة أمانة،1989) وفي المملكة العربية السعودية (المدينة 1990) كما تم في هاتين الطبعتين المنقحتين حذف المقاطع المنطقية الزائفة والثيوصوفية[1]، وكذلك تم استبعاد كل ما يتعلق بالتعابير المسيحية المستعارة وبذلك تم التوكيد على أهمية الناحيتين الاجتماعية والسياسية في القرآن.

- أبو الأعلى المودودي (متوفى 1979) «تفهيم القرآن» الذي صدر في ستة مجلدات بشرح مستفيض باللغة الأوردية. ويعتبر المودودي مؤسس حركة الإصلاح الإسلامية الهندية الباكستانية المعروفة باسم «الجماعة الإسلامية». ويتم في هذه الأيام إصدار ترجمة لهذا التفسير إلى اللغة الإنكليزية يقوم بها ظافر إسحق أنصاري وتنشرها المؤسسة الإسلامية في مارك فيلد في المملكة المتحدة، بشكل متتابع.

- سي حمزة بوبكر: «القرآن» (1972) وقد صدر هذا التفسير باللغة الفرنسية مع النص العربي للقرآن في مجلدين كبيرين مع شرح مستفيض على الهامش الأيمن.

- محمد أسد ـ المدعو سابقاً ليوبولد فايس (متوفى 1992) «رسالة القرآن» 1980باللغة الإنكليزية وهو تفسير جدير بالتقدير، ولكنه أيضاً موضع انتقاد لاتِّباعه المنهجية العقلية

(1) الثيوصوفية هي معرفة الله عن طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي أو كليهما. (المترجم)

المنطقية المختلف عليها (الطريقة المعتزلية الجديدة)، كما أن هذا التفسير ترجمة نفسانية مع تفسير دقيق وشفاف نتيجة المعرفة التامة بلغة البادية العربية. وربما كان أسد يبالغ بعض الشيء في أسلوبه المجازي، واستخدامه الكثير للاستعارة والتشبيه. وقد ترجمت «رسالة القرآن» هذه إلى اللغتين التركية والسويدية.

- فاطمة غريم وآخرون: «معاني القرآن» (1997) وهو تفسير في خمسة مجلدات كبيرة الحجم ويحتوي على النص العربي للقرآن. وقد قام بترجمة القرآن مجموعة من السيدات المسلمات الألمانيات، وأخريات من أصول عربية وقد وضعن الكثير من الحواشي التي أخذت عن عدد من التفاسير القديمة والحديثة.

ويمكننا أن نصنف كل تفاسير القرآن في المجموعات التالية:

- التفاسير الكلاسيكية (الطبري، ابن كثير، الجلالين).
- التفاسير الطائفية (محمد علي والتفاسير الشيعية).
- التفاسير الصوفية الباطنية (التُستَري، ابن عربي).
- التفاسير العقلية المنطقية (الزمخشري، عبده، أسد).
- التفاسير التبريرية (يوسف علي)
- التفاسير السياسية الإسلامية (المودودي، قطب)

تميل التفاسير الطائفية إلى استنباط أمور من القرآن الكريم يتصورون وجودها فيه مسبقاً. أما العقليون والمناطقة فيحاولون تفسير الظواهر الخارقة كالجن والمعجزات بطريقة طبيعية، ويجهدون لإثبات التوافق بين القرآن والعلوم الطبيعية. في حين يسعى التبريريون إلى مَدِّ جسور بين الإسلام والمسيحية، وإلى التوفيق بين المبادئ القرآنية والمفاهيم الغربية. وأخيراً فإن الإسلاميين يسعون جاهدين لاستنباط ما يتصورونه دافعاً للعمل الفعال في أمور الحكم والاقتصاد.

ويحسن بنا هنا أن نستشهد بما قالته آنِماري شيمل في هذا المجال: «ربما كان على المرء حيال هذا التنوع في تفاسير القرآن أن يلجأ إلى القول: إن الوحي الإلهي الواضح الجليّ لا يكون وحياً حقيقياً خالصاً».

القرآن مصدر التشريع

«لم يتحضر شعب على الإطلاق بالسرعة التي تحضر بها العرب عن طريق القرآن»

(محمد حميد الله)

الشريعة:

مع أن القرآن بالدرجة الأولى كتاب ديني فقهي وذو أهداف دينية، فإن له دوراً كبيراً في الأحكام الشرعية. فالإسلام هو شكل شامل من أشكال الحياة، والقرآن هو الدليل إلى ذلك، فهو الكتاب الهادي إلى الحق والخير؛ كتاب الشريعة.

إن القرآن يحتوي على أحكام وتوجيهات لسلوك الإنسان:

- مع ربه
- مع محيطه من إنسان وحيوان وطبيعة
- ومع نفسه

ولابد هنا من التفريق بين ما هو مستحب، وما هو مكروه من ناحية، وبين أوامر الدين ونواهيه من ناحية أخرى، وكذلك بين ما يعاقب على عمله أو تركه، وبين مالا يعاقب عليه. كما أن هناك فرقاً في العقوبات بين ما يتم في الدنيا وما يؤجل إلى الآخرة.

لقد اختلف أصحاب المنطق من فقهاء المسلمين مع الأصوليين منهم لفترات طويلة حول إذا ما كان الله تعالى قد أوصى بالخير لأنه خير، ونهى عن الشر لأنه شر، أو أن ما أوصى به الله تعالى في القرآن هو خير وما نهى عنه هو شر. ولا يترتب في الحقيقة على هذا الخلاف أية نتائج فعلية، إذ ينطلق كل المسلمين في اعتقاداتهم من أن الشريعة هي المقياس أو المعيار المُلزم لهم في سلوكهم.

وبما أن كل آية من القرآن الكريم تقريباً يمكن أن تكون في بعض الأزمنة وفي بعض المناسبات ليست بذات أدلة شرعية واضحة، وبما أن الفقهاء لا يزالون غير متفقين على عدد الأحكام الشرعية في القرآن الكريم، يمكن أن نقول إن هناك حوالي ستمئة آية فقط تتناول هذه الأحكام، منها حوالي أربعمئة تتعلق بأحكام العبادات.

أما القسم الأكبر من الآيات التوجيهية بالمعنى الضيق للكلمة فتتناول المجالين المتقاربين، وهما الأحكام العائلية وأحكام الإرث (سبعون آية تقريباً) بما في ذلك أحكام الزواج والطلاق وسلوك الزوجين والعناية بالأيتام، كما بين تسلسل الوارثين حسب أحقيتهم بالإرث، والحرية في الوصية والجانب الإلزامي منها، وشكليات إجراءات الوصية الأخيرة وما شابه. وترد الأحكام الشرعية المفصلة في هذا المجال في سور البقرة والنساء والأحزاب (2، 4، 33).

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الجنسين والالتزامات الاجتماعية في السلوك الجنسي، فقد نظمها القرآن بأحكام تتعلق باللباس والصحة والسلوك العائلي. ونرى هذه الأحكام موجودة إلى حد بعيد في المفهوم القانوني الغربي في أيامنا هذه، إلا أن القرآن يضع الأخلاق أيضاً ضمن ضوابط وأحكام شرعية.

كما هناك حوالي عشر آيات تعالج أمور الحكم والدولة، وهناك ثمانون آية أخرى تعالج الأمور الاقتصادية والمالية (الشورى، رئيس الدولة، الملكية العامة في مقابل الخاصة، تحريم الربى، النظام العسكري)، بالإضافة إلى قانون الأدلّة في المحاكمات المدنية. كذلك يحتوي القرآن على حوالي خمسة وعشرين من الأحكام التي تتناول التعامل الاجتماعي، وما يمكن أن نسميه اليوم القانون الدولي كالعقود والحرب والسلام والحقوق الإنسانية أثناء الحروب وحقوق الأقليات الدينية. وأخيراً هناك ما ينوف على ثلاثين من الأحكام الجزائية والمدنية كالقتل والاعتداء، والسرقة والنهب، والابتزاز، والقذف والتجريح والزنى، والخيانة العظمى، وطلب الأدلّة وتقديمها وشروط القَسَم والشكاوى الشخصية وتعويض الأضرار.

إن كل ما سبق ذكره من مواضيع بالإضافة إلى القانون الجزائي، هي من صلب الشريعة وأحكامها. والشريعة هي قانون إلّهي، ولا تخضع لأي من مجالات التعديل أو القوانين الوضعية. لذلك فإن القانون القرآني في مجال الشؤون العائلية وشؤون الإرث لا يزال حتى الآن معمولاً به تقريباً في كل الدول الإسلامية. إلا أن تأويل أحكام الشريعة وتفسيرها بما لا يتعارض مع السنة الشريفة ممكن، لا بل ضروري للاستجابة إلى متطلبات التطور الاجتماعي والتحول إلى مجتمعات صناعية حديثة. وهكذا نجد فقهاء الشريعة الإسلامية في العصر الحديث يجدون حلولاً تعتمد مبادئ شرعية قرآنية للكثير من المشاكل العصرية كالأمومة المستعارة، وأطفال الأنبوب، ونقل الأعضاء، ومعالجة الجينات، والاستنساخ، والموت السريري.

المقاصد:

تصل الشريعة الإسلامية في مثل الحالات آنفة الذكر إلى نتائج متوافقة مع نصوص القرآن الكريم، باستخدام القياس لتغطية مالم ينص عليه في الشريعة بصراحة، أو اشتقاق مقاصد واتجاهات جديدة من أحكام القرآن الكريم، منها العدل والمساواة، والتضامن والمسؤولية الذاتية، والحرية الفردية، والكرامة، والمصلحة العامة، والشراكة الزوجية، والشرف، وعدم الاضطهاد الديني والعرقي. إلى ذلك هناك بعض المبادئ الأساسية الهامة:

- كل شيء مسموح إذا لم يرد نص بمنعه
- ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة: 173].
- ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى: 40].
- الدين ييسر الحياة ولا يعسّرها:
- ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: 185].
- ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: 78].
- تتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة
- اختيار أهون الشرّين عند الضرورة
- ما يؤدي القيام به إلى المحرمات فهو أيضاً حرام.

إن هذا التعاون أو الأداء المشترك بين القياس والمبادئ القرآنية يعطي القرآن، ويعطي الشريعة بالتالي تلك المرونة اللازمة، ويحافظ بذلك على نجاعة القرآن والشريعة بالتعاطي مع كل الظروف التي قد تطرأ عليها تغيرات كبيرة.

الاجتهاد:

إن تفسير القرآن وتأويله، وقبل كل شيء من وجهة نظر شرعية، هو من مهام رجال الدين المؤهلين للاجتهاد. وهكذا يُدعى الفقيه المتضلع في كل علوم القرآن، بالإضافة إلى اللغة العربية وفقهها، وتاريخ الإسلام الأول وما قبله، مجتهداً يحق له التفسير والتأويل. والمثال الأعلى لمفسري القرآن في الوقت الحاضر هم الأئمة الأربعة مؤسسو المدارس الفقهية التاريخية في الإسلام أبو حنيفة (700-767) ومالك بن أنس (716-795) وإدريس الشافعي (767-820) وأحمد بن حنبل (780-855).

إن تسامحهم كان مثالاً وسيبقى كذلك. لقد كان كل واحد منهم يعتقد أن تفسيره في الأمور الخلافية هو الصحيح، وتفسير الآخرين خاطئ، ولكن مع ذلك كان يقر كل منهم أنه قد يكون على خطأ ويكون الآخرون على صواب. وقد كان كل منهم يخضع في النهاية لحكم الله. فالشافعي مثلاً طور في حياته العلمية طريقتين اثنتين بالاعتماد على القرآن نفسه، ولكنهما كانتا متعارضتين في بعض أوجههما، وكانت الأولى أثناء إقامته في العراق، أما الثانية فكانت بعد انتقاله إلى العيش في مصر حيث كانت الظروف هناك مختلفة تماماً ومؤثرة عليه.

إننا نرى هنا أن على مفسري القرآن العصريين أن يحافظوا على هذا الأنموذج من التسامح وعدم التحيّز، وعلى حرّية الفكر حتى لا يغرقوا في متاهات الطائفية والتعصب. عليهم أن يسعوا بعملهم ليشاركوا في تطوير إجماع عصري، وربما دفع ذلك سريعاً إلى إيجاد مدارس فقهية إسلامية أوروبية وأمريكية تراعي أحكامُها التحديات التي يصادفها المسلمون في مهاجرهم، والتي لم يصادفوها بعد في بلادهم الأصلية كالمجتمعات المدنية العصرية على سبيل المثال.

وعلى أية حال فإننا نرى أن كل جيل يسعى لدراسة القرآن ومحاولة فهمه فهماً جديداً ليستنبط منه ما يفيده في دينه ودنياه. فالقرآن كالبحر لا ينضب معينه، وهو أيضاً في حركة دائمة متجددة.

ليقم كل منا بهذه التجربة بنفسه: اقرأ القرآن بتمعن وتمحيص مرتين متتاليتين خلال أسابيع قليلة، وسترى أنك في القراءة الثانية ستفهم بعض الأمور، وتستكشف بعض المفاهيم التي غابت عنك في القراءة الأولى.

الإنجيل والقرآن

«القرآن بطبيعته وكنهه وحي ديني اقتصادي»

(باول شفارتسيناو)

يرتبط القرآن بالإنجيل بأشكال وطرق مختلفة، منها ما يتعلق باللغة والمضمون، ومنها ما يتعلق بتاريخ الديانات وبالعقيدة.

مقارنات عقائدية:

إن القرآن الكريم بحد ذاته يشكل رسالة متكاملة، إلا أن الإسلام لا يعتبر نفسه ديانة جديدة، وإنما إعادة صياغة واستكمال للديانات التوحيدية منذ أيام إبراهيم، الأب المشترك لليهودية والمسيحية. وهذا ما يتضح في أن القرآن يشير إلى التوراة والزبور والإنجيل على أنها كتب سماوية.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران: 3].

ولذلك سمّى القرآن اليهود والمسيحيين أهل الكتاب وأوصى بحمايتهم

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ...﴾ [آل عمران: 64].

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين لا يعودون في ديانتهم إلى رسولهم بمقدار ما يعودون به إلى كتابهم الكريم.

وبذلك فإن الشريعة اليهودية والمسيحية سارية المفعول بالنسبة للمسلمين مالم يأت القرآن بتعديل لها. (البقرة 106، الرعد 39).

مقارنات لغوية:

يسمي القرآن التراث الثقافي التوراتي والإنجيل "إسرائيليات"، وقد استمد هذه التسمية من أصول عبرية. وهذا ما كان سبباً لطرح احتمال تنزيل القرآن بلغة أخرى غير اللسان العربي المبين (يوسف 2، النحل 103). ولم يُحل هذا الطرح حلاً لغوياً نهائياً إلا عند الإمام الشافعي (767-820) حيث عدّ الإسرائيليات في مؤلّفه الهام «الرسالة» (الفصل الرابع) من الكلمات المعرّبة.

إلا أنه كان من الصعب إنكار الارتباطات الفكرية مع الديانتين اليهودية والمسيحية، التي أدخلت المفاهيم القرآنية عبر التشابهات اللغوية والكلمات المشتركة، كالعقل والروح والعقد على سبيل المثال. وبينما يفهم المسيحي تحت كلمة «العقل» يسوع المسيح «كلمة الله تجسدت في جسم بشري»، ويفهم تحت كلمة «الروح» «روح القدس» الشخص الثالث في الثالوث الإلهي، يفهم اليهودي تحت كلمة «العقد» ذلك الرباط بين الله وشعب إسرائيل، الذي يجعل منه شعباً مختاراً (سفر الخروج 34، 27). وعلى العكس من ذلك فإن المسلمين لا يجسدون العقل ولا الروح سواء ورد في القرآن الكريم ذكر «الروح

الأمين» أو ذكر «الروح القدس» (الشعراء 193، النحل 102) الذي نزّل القرآن من الله بالحق (الإسراء 85). وإنما يفسرون ذلك على أنه روح الله أو مجرد وحي إلهي. أما تحت كلمة «العقد» (البقرة 27) فلا يفهم المسلمون بأي شكل من الأشكال عقداً أو عهداً قطعه الله على نفسه أمام المؤمنين.

مقارنات في المضمون:

يسعى الإسلام لإعادة التوحيد الصحيح الذي أتى به إبراهيم (ع)، وبذلك يتفق مع اليهودية كفكرة. كما أن لأنبياء اليهود، وفيهم عيسى (ع)، وجوداً كبيراً في القرآن الكريم ومنهم إبراهيم وهارون وداود وإلياس وإليسع وعيزرا ويعقوب وأيوب ويونس ويوسف ولوط وموسى ونوح وسليمان. وقد ذكر في القرآن الكريم ثلاثة وعشرون نبياً يعتقد بهم اليهود، إلى جانب نبيين عربيين وهما هود ومحمد. وهناك سبع سور تحمل أسماء الأنبياء إبراهيم وعمران وهود ويونس ويوسف ونوح ومحمد. وقد ذكر موسى في القرآن 136 مرة بالاسم وإبراهيم 69 مرة وعيسى 26 مرة (بالإضافة إلى ذكره بالمسيح وبابن مريم). كذلك ذكرت السيدة مريم في القرآن أكثر مما ذكرت في العهد الجديد، وقد سميت السورة التاسعة عشرة باسمها (سورة مريم).

إلا أنه مما يلفت النظر تجاهل القرآن لأنبياء يهود آخرين هامين، ومنهم على سبيل المثال: عاموس وحزقيال وهاباكوك وأشعياء وأرمياء وملاخي.

وبما أن النصوص القرآنية مرتبطة بالإنجيل، وكثيراً ما تعود إليها، فإنه ليس من المستغرب وجود أوجه شبه كثيرة بين الكتابين. وقد سبب هذا التشابه اتهام القرآن بأنه يعود في مضمونه إلى مراجع يهودية ومسيحية حتى لا نسميه انتحالاً. وهناك بعض الأمور التي لم ترد في القرآن بمفهومها اليهودي أو المسيحي، وكانت أقرب إلى مفاهيم بعض الطوائف الابتداعية (ذات الآراء الهرطقية) اليهودية والمسيحية كالسامريين والنساطرة والأقباط.

إلا أن تاريخ التنزيل والوحي الإلهي للقرآن الكريم ينفي كل ما يقال عن «نقله» من كتب أخرى. ومع ذلك فإن نكران أن النصين يعودان إلى مصدر واحد هو نكران يخالف المنطق.

ولا تتعارض مع الفرضية السابقة حقيقة أن الوصف القرآني للحوادث المذكورة في الإنجيل أو التوراة يختلف إلى حد كبير عن مقاربتها في الكتابين المذكورين. فالإنجيل يتحدث عن أنبياء بني إسرائيل وعظاتهم ورسالاتهم وشعوبهم بأسلوب قصصي أدبي، ويعطي صورة تاريخية لسلوك هؤلاء الأنبياء قد تكون غير مفهومة، أو ربما منفرة بعض الأحيان كما هي الحال عند ذكر داود في سفر صموئيل الثاني، إصحاح 11و 2-26.

وعلى العكس من ذلك فإن القرآن يفترض معرفة الأمور المذكورة في التوراة والإنجيل مسبقاً. ولا يهتم القرآن إلا بخلاصة الرسالات النبوية، وما يمكن استخلاصه من أمور أخلاقية. لذلك فإن الوصف

القــرآني ليس تــاريخيــاً وواقــعــيــاً، وإنما هو وصــف حــواري ومــعنوي مـجـرّد. وهكذا يقـول القـرآن على شكل حكايات تعليـمـيـة نفسـيـة مـا يقول الإنجـيل في مضـمـونه دون أن يكون مـتـشـابهـاً في أسـلوبه. لذا يمكن أن نقول مع جاك بيرك إن القرآن قد أخرج «الإسرائيليات» من شكلها الأسطوري.

كذلك فإن القرآن يذكر طبيعة السيد المسيح ودوره الإعجازي بإذن ربه، دون أن يدخل في تفاصيل حياته وعمله الواقعي.

وعلى أي حــال فــإن من الخطـأ أن نســتنتج من نصــوص الإنجـيل ونصوص القرآن المختلفة أن هناك خطأ في أحدهما.

تناقضات:

ومع ذلك فـإننا لا نستطيع أن ننكر وجود تناقضـات حـقيقـية بين هذين الكتابين المقدسين:

1- يرد ذكر الله تعالـى في العهد الحديث من الإنجيل على وجه خاص، بأنه «الأب». بينما لا يستخدم القرآن مصطلح «الأب» إلا في ســيـــاق الكلام عن الجنس والأســـرة، ولم يرد هـذا المصطلح مطلقاً على أنه صفة لله تعالى. بينما يذكر الله على أنه «الخـالق». وتعـود الأسـمـاء الحسنى التسـعـة والتسـعـون الواردة في القرآن إلـى صفات لا تتعلق بالجنس أو النوع وإنما بالأعمال فقط.

2- ينطلق الإنجيل من أن الله تعب من خلق الكون فاستراح في اليوم السابع وتنفس الصعداء: (سفر التكوين، إصحاح 2/2 وما يليه وسفر الخروج، إصحاح 20/11، 31/17). وعلى عكس هذه النظرة الإنسانية إلى الخالق تعالى، يبين القرآن أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم (البقرة 255) خاصة وأنه تعالى منّزهٌ عن أي شعور بالتعب والمشقة ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾**﴾ [ق: 38].

3- إنه لمن قبيل الفكاهة أن العالم لم يُخلق إلا منذ 5767 عاماً حسب التقويم اليهودي، بينما لم يذكر القرآن أية معطيات من هذا القبيل يمكن أن تكون قابلة للنقض.

4- تختلف قصة الخلق في الإنجيل بشكل كبير عما وردت في القرآن الكريم:

أ- يروي الإنجيل أن الخالق تعالى قد حذّر آدم وحواء من أن يأكلا من «شجرة المعرفة»، لأنهما إذا فعلا ذلك فسوف تنفتح أعينهما على معرفة الخير والشر، «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ......» (سفر التكوين، إصحاح 2/3، 5، 22). أما القرآن فيبين بكل وضوح أن هدف الرسالة السماوية هو أن يعرف المرء كيف يفرق بين الخير والشر، ولا يمنعه بل يحضه على المعرفة. وهكذا يسمي القرآن ذلك التوجه للتفريق بين الخير والشر والحق

والباطل «فرقاناً» (البقرة 53، 185، آل عمران3/4، الفرقان1). كما أن القرآن لا يبين سبباً لمنع الأكل من تلك الشجرة، بل يقول إن الشيطان وسوس لهما ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 19-20]، وكذلك مضمون الآية 120 من سورة طه.

ب- يذكر الإنجيل أن حواء أغوت آدم على ارتكاب الخطيئة (سفر التكوين، إصحاح 3/1، 7، 12) وأكلت أولاً من ثمر الشجرة. كما اتهمها آدم بأنها السبب في خطيئته بعد أن أطعمته من الثمرة التي أكلت منها. وقد فصل بولس الرسول وعمم في تحميل المرأة مسؤولية هذه الخطيئة، وأنذرها بنتائج مأساوية لاحقة (الرسالة الثانية إلى كورينثوس 11، 3/1 والرسالة الأولى إلى تيموثاوس 2/14). أما القرآن فقد صور هذه الحادثة نفسها واستخدم صيغة المثنى. وتدل هذه الصيغة في الخطاب على أن آدم وحواء كانا كلاهما مسؤولين عن عملهما، ولذلك لا يستطيع أحدهما أن يتهم الآخر.

ج- وهكذا يقول الإنجيل إن الله جعل مسؤولية هذه الخطيئة مستمرة في الإنسانية تتحملها المرأة بالدرجة الأولى «وقال للمرأة تكثيراً أُكَثّر أتعابَ حَبَلِك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رَجُلك يكون اشتياقُك وهو يسود عليك» (سفر التكوين، الإصحاح 3/16). أما الرجل فعاقبه بالتعب كل حياته «وقال لآدم» «لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة.... بالتعب تأكل منها كل حياتك» (سفر التكوين، الإصحاح 3/ 17). وهكذا أخرج الله الخاطئين كليهما من الجنة دون أن يغفر لهما. ومن هذا الوصف تكونت لاحقاً نظرية «الخطيئة الأصلية الموروثة»، هذه النظرية المسيحية القَدَرية الجبرية، التي تقضي بأن كل البشر يولدون حاملين لهذه الخطيئة ومحتاجين للخلاص. وعلى هذا الأساس اعتبر بولس الرسول صلبَ السيد المسيح «الإنسان الرب» أنه خلاص للبشرية كلها. (سفر رسالة أهل رومية، إصحاح 13-19 وغيرها). وكما قال السيد المسيح في إنجيل متّى 19/14 «أما يسوع فقال دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» ، كذلك انطلق القرآن الكريم من أن الأطفال يولدون بلا خطيئة، ولذلك ليسوا محتاجين إلى العماد فهم لا يحملون «الخطيئة الموروثة» (سورةالزُّمَر 70). إن الله تعالى أمر آدم وحواء بالخروج من الجنة (الأعراف 24 وما بعدها) إلا أنه غفر لهما (البقرة 37، طه122).

وعلى أية حال فإن القرآن يتمسك بالقاعدة الأساسية التي تنص على أنّ: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور: 21]. وبذلك فهو ينفي بشكل قاطع الوزرَ الجماعي: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الإسراء: 15].

5- تتجلى إحدى الصور أو الأفكار الأساسية الثابتة في الإنجيل في اعتبار بني إسرائيل شعباً مختاراً من قِبَل «رب إسرائيل الغيور» وتظهر هذه الفكرة واضحة في عدة أماكن من العهد القديم منها: سفر الخروج، الإصحاح 34/14 وسفر صموئيل الأول، الإصحاح 25/32. وفي هذا ما يشير إلى أن هناك «آلهة غرباء». وعلى العكس من هذا التوحيد المميّز نجد القرآن الكريم يدعو الله بأنه ﴿...**رَبِّ النَّاسِ** ۝١ **مَلِكِ النَّاسِ** ۝٢ **إِلَٰهِ النَّاسِ** ۝٣﴾ [الناس: 1-3] فهو ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ كل العالمين [الفاتحة: 2].

6- لم يكن هناك قبل موسى فراعنة في مصر بل كانوا يُسَمَّون ملوكاً، ومع ذلك فإننا نجد أن العهد القديم من الإنجيل يدعو كل حكام مصر فراعنة (قارن: سفر الخروج، الإصحاح40). ومع أن هذه الحقيقة لم تكن معروفة في القرن السابع الميلادي، نجد أن القرآن الكريم فرّق بين «الملك» الذي تعامل معه يوسف في مصر (سورة يوسف 43، 50، 54) وبين «فرعون» الذي تعامل معه موسى (سورة البقرة 49 ومابعدها، سورة الدخان 17، 31 وشواهد أخرى).

7- كذلك صور العهد القديم من الإنجيل النبّي نوحاً (ع) على أنه مُدمنٌ على الشراب المُسكر (سفر التكوين، الإصحاح 9/20)، واتهم إبراهيم وإسحق (ع) بالكذب (سفر التكوين، الإصحاح/12 10 وما بعدها)، وقال عن موسى (ع) إنه كان فاتحاً بلا رحمة (سفر التثنية، الإصحاح 3/6 وما بعدها)، أما داود (ع) فكان، كما ذكره العهد القديم، طاغيةً وقاتلاً ومارس الخيانة الزوجية (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح 3/12 و 16/11 و 2/26)، ولم يسلم سليمان (ع) من الاتهام فقد كان متعسفاً مستبداً وزير نساء ومرتداً أيضاً (سفر الملوك الأول، الإصحاح 2/13 و -11/1 9)، كذلك اتهم لوط (ع) بِغِشيان المحارم في حالة السُّكْر (سفر التكوين، الإصحاح 19/31وما بعدها). وعلى عكس هذه الصورة البائسة، فإن القرآن الكريم ينطلق من أن كل الأنبياء، وفيهم من سبق ذكرهم، يتمتعون بأخلاق عالية، وقد عاشوا حياة خالية من الذنوب والمعاصي.

8- يصور القرآن صلب السيد المسيح (ع) على خلاف ما ذكره العهد الجديد من الإنجيل فيقول: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ [النساء: 157].

9- لا يحصر القرآن معرفة الله ولا يحدها بإنسان ـ عيسى المسيح ـ أو بكتب مقدسة، وإنما يقدم دائماً الطبيعة والعالم والكون بأجمعه كبرهان وبيان واضح لوجود الله وقدرته، أما الإنجيل فهو بعيد كل البعد عن المذهب الطبيعي الديني.

لم نذكر في قائمة التناقضات أعلاه الطبيعة الإلّهية للسيد المسيح ولا الثالوث المقدس، لأنه لا يوجد أية براهين أو أدلة دامغة على هاتين العقيدتين لا في نصوص الإنجيل ولا في تاريخ الرُّسُل أو الحواريين. مع ذلك فإن هذه القائمة كافية لتبرير الشكوك التي تظهر في العالم الإسلامي حيال صحة الإنجيل، فهم يعتبرونه مُحَرّفاً جزئياً، ولذلك ليس موضع ثقة (البقرة 174وما بعدها) وهكذا يلتزمون بالقرآن الكريم فيما يرد فيه من ذكر الارتباطات العقائدية. وفي الحقيقة فليس للإنجيل دور ديني هام لدى المسلمين من وجهة نظر واقعية، وليس من وجهة نظر شرعية. وقد أصبح القرآن مرجعهم الأول والأخير. ويمكن أن يُسنَدَ هذا الموقف المُخْتَزِل لأهمية الإنجيل إلى بعض نصوص القرآن، حيث إن:

- محمداً هو خاتم النبيين والإسلام خاتم الديانات (الأحزاب 40).
- وأن الله محيط بكل شيء وما فَرَّط في الكتاب من شيء (الأنعام 38).
- كما أكمل الله الدين وأتمَّ نِعمتَه مع نهاية التنزيل (المائدة 3،48)

وهكذا ينظر المسلمون إلى الإنجيل كما ينظر أتباع المذهب الكاثوليكي إلى العهد القديم على وجه التقريب. ولذلك فإنه ليس من المنطقي تماماً حينما يستند المسلمون إلى نصوص يشكون هم أنفسهم بصحتها، للدلالة على أن هناك في الإنجيل بشارة إلهية بقدوم رسول بعد السيد المسيح (سفر التثنية، إصحاح 18/15و18) و (إنجيل يوحنا، إصحاح 14/26و إصحاح 16/13).

القرآن والعلم

اختصاص في العلوم الطبيعية؟

«لا يتعارض عمل الله مع كلمته»

(سيد أحمد خان)

يعطي القرآن الكريم أهمية كبيرة لملاحظة الطبيعة كآية من آيات الله، ويطلب من المؤمنين التفكر في هذه الآيات. ولكنه ينطلق في ذلك من «أنَّ عملية رؤية هذه الآيات الإلهية هي عملية إيمانية من حيث طبيعتها، يجب أن تسبق عملية تأويل ما نراه منها» كما يقول يد الله كاظمي.

كذلك فقد شجعت إشارات القرآن إلى آيات الله في الطبيعة والكون عامة، علماء الطبيعة المسلمين منذ بدايات العصور الوسطى للقيام باختراق في هذا المجال، وإجراء بحوث تجريبية رائدة في علوم الحياة والحيوان والجغرافية والبصريات والطب والفلك والرياضيات، ولا يزال المسلمون حتى اليوم فخورين بذلك، حتى أصبح هذا الفخر هروباً عاطفياً لهم إلى العصور الذهبية في الأندلس وبغداد. ويحتوي القرآن، من وجهة نظر المسلمين، فلسفة علمية تميّز بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية غير الدينية. مع ذلك فإنه من الخطأ اعتبار القرآن كتاباً تعليمياً للعلوم الطبيعية، أو النظر إليه كموسوعة علمية، إلا أنه يتناول الإنسان وبيئته ومجتمعه بتفاصيل دقيقة أحياناً، ولكن ضمن إطار رسالة روحانية شرعية تتوجه بالمؤمن نحو آخرته لا دنياه.

وعلى أي حال فإن المسلمين يستطيعون أن يشيروا بفخر إلى تلك المظاهر الطبيعية المذكورة في القرآن الذي هو الكتاب المقدس الوحيد، الذي لا يحتوي على أية معلومات استطاعت المعارف الحالية في العلوم الطبيعية أن تنقضها. كذلك فإن القرآن لا يكرر مطلقاً تلك الأخطاء التاريخية، وفي مجال العلوم الطبيعية التي يذكرها الإنجيل. ويعتبر هذا لافتاً للنظر بشكل خاص، لأن هذه الأخطاء لم تكن قد نقضت بعد حينما نزل القرآن. وقد وثّق ذلك موريس بوكاي (Maurice Bucaille) سنة 1976 في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم»[1].

فعلى سبيل المثال تبدأ حكاية الخلق في القرآن، على عكس الإنجيل، بشكل صحيح من أن الكون نشأ بعملية خلق وليدة لحظتها، وهذا ما يسمى اليوم «الانفجار الأول» الذي يعدّ بداية نشوء الكون وفق المعطيات العلمية الحالية، ولكنه كان في البداية كوناً غازيّاً ليتحول بعد ذلك إلى وجود زماني مكاني:

«كُن فيكون» لتأتي الآية 30 من سورة الأنبياء وتوضح: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** ﴿٣٠﴾﴾. بعد ذلك تأتي الآية 11من سورة فُصّلت لتُكمل: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴿١١﴾﴾.

(1) طُبع بعنوان: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، في ترجمته العربية. (المترجم).

أما وجود عدة سماوات، أو عدة مَجّرات كما تسمى اليوم، والتي أشار إليها القرآن الكريم، فهي حقيقة لم تكن معروفة في القرن السابع الميلادي شأنها شأن حقيقة أن الحياة نشأت من الماء، وبالتالي كانت نشأة الإنسان أيضاً وفق تخطيط إلهي طويل المدى. كما تشير إلى ذلك الآية 30 من سورة الأنبياء والآية 45 من سورة النور.

كذلك فإن علم الفلك الحديث يؤكد ما ذكره القرآن من أن الكون في اتساع مستمر:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: 47].

أما المدهش الرائع فهو تصوير القرآن للتكاثر البشري من النطفة (النحل 4) التي تعلق في رحم الأم (الحج5، المؤمنون14، غافر67، القيامة 37 وما بعدها). ومما يزيد في روعة هذا التصوير، أنه أتى في وقت كانت عملية التكاثر لا تزال محفوفة بالخرافات، فأتى القرآن ليشرح تكون الجنين من النطفة إلى العلقة والمضغة، ثم إلى تشكيل العظام واللحم وبين أن هذا ينتج عن نطفة رجل تُمنى لتستقر في بويضة المرأة. وقد كان ذلك واضحاً في أول سورة نزلت من القرآن الكريم:

﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق: 1-2].

ومع ذلك فلم يستطع المسلمون فهم ما ورد في القرآن حول ذلك فهماً علمياً صحيحاً إلا بعد قرابة ألف وثلاثمئة سنة، حين أصبحت الأبحاث العلمية العصرية قادرة على إثبات صحة ما أتى به القرآن عبر دراساتها المجهرية.

وكان مذهلاً أيضاً ما أتى به القرآن الكريم حول نجاة فرعون ببدنه حينما كان يلاحق موسى (ع)، وأدركه الغرق في البحر الأحمر (يونس92). ويعتقد أن هذا الفرعون كان ابن رمسيس الثاني الذي يدعى مينيفتا أو ميرنيفتا الذي اكتشفت مومياؤه في حالة جيدة سنة 1898 في وادي الملوك عند طيبة.

إن التوافق بين القرآن والعلم عملية واضحة ومشروعة، ولو كان وَقّعُ هذا التوافق أحياناً على بعضهم يتخذ طابع التبرير العقلي. إلا أنه لا يجوز البحث في القرآن عن تفاصيل علمية، أو الاعتقاد أنه كتاب للعلوم الطبيعية، فهذه الجهود الخاطئة قادت إلى التأكيد بأن القرآن يحتوي على ثلاث وعشرين آية تتعلق بالعلوم الطبيعية (عالمي محمد مخيش Alami Mohamed Mchich) والتي تتناول فيما تتناول أبحاث الفضاء (الرحمن 33و35) وعلم غزو الفضاء (الأنعام 125) وانقباض الكون (هود 107) وأبحاث البحار اللّجّية (النور 40) وفساد البيئة في البر والبحر(الروم 41) والفيزياء المجهرية (سبأ 3) إلى ذلك هناك آخرون أرادوا أن يؤكدوا أنهم وجدوا في القرآن الكريم أيضاً أقوالاً عن الكهرباء والجراثيم.

يبدو واضحاً أن مفسري القرآن مِمَن لديهم أساس جيد في العلوم الطبيعية يميلون إلى استنتاجات لا تتعدى كونها حلقات مفرغة، إذ إنهم يقرؤون القرآن، ويستنتجون منه ما يريدون عبر تلاعبات لغوية. ولكننا يجب أن نقر أن هناك بعض الحالات القليلة التي تحمل في طياتها أكثر من معنى، حيث يكون لها تفسيران شرعي وعلمي والآية

الثالثة من سورة سبأ توضح مثالاً على ذلك: ﴿**قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٣**﴾

فمثقال ذرة يمكن أن يفسر على أنه الجزيء الأصغر من المادة، لأن مصطلح (ذرّة) يعني الجوهر بمعناه الفلسفي فيما قبل سقراط، كما يستخدم بمعنى الجزيء أو الجوهر في الفيزياء النووية الحديثة. ومنها أتت تسمية "القنبلة الذرية". وهكذا يمكن للمرء أن يختار بين فهم هذه الآية على أنها وصف لِسَعَة علم الله أو/و كإشارة إلى تركيب البنية الذرية للمادة.

القرآن ...كتاب النبوءات؟

يتعامل القرآن دوماً مع المستقبل، وهو يذكّر الإنسان دائماً بأنه عابر سبيل في هذه الحياة الدنيا على طريقه إلى الآخرة. فالقرآن يصف الكثير من الأمور الأُخروية القادمة كيوم الحساب والجنة وجهنم في توافق كبير مع التصورات المسيحية عن هذه الأمور.

بالإضافة إلى ذلك، فإن القرآن يحوي نبوءات تاريخية وقعت لاحقاً كما تشير الآيات 3-4 من سورة الروم فقد دخل الفرس سنة 613 دمشق وسنة 614 القدس وغلبوا الروم البيزنطيين هناك، ولم يكن هناك ما يدل على أن الأمور ستنقلب سريعاً. ولكن النبوءة ﴿**وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ**﴾ تحققت بشكل فجائي واستطاع البيزنطيون أن يحققوا نصراً ساحقاً على الفرس سنة 622.

ومع ذلك فإن القرآن ليس كتاب نبوءات، فهو يحرم على المسلمين التكهنات والاستقسام بالأنصاب والأزلام (المائدة 90) ولكنها أنباء عن الغيب تستند إلى القرآن الكريم.

العلم والقرآن

إن القرآن أكثر الكتب تأثيراً عقائدياً في عالمنا المعاصر

(توبي ليستر)

بدأ رجال الدين المسيحيون منذ يوحنا الدمشقي (توفي حوالى 750) باتخاذ موقف من القرآن الكريم خلال مسيرة التاريخ الإسلامي. ولم يكن هدفهم من ذلك ــ كما قال رئيس دير كلوني بيتروس فينيرابيليس (متوفى 1165) ومارتين لوثر (متوفى 1546) وفيليب ميلانكتون (متوفى 1560) ـ فهم القرآن وإنما مكافحته. وهكذا كانت كتبهم ضد الإسلام هجومية، وغير منطقية، ومشوهة لتعاليم الإسلام.

أما أولى الدراسات الجدية للقرآن، مع أنها كانت مغرضة ومتحيزة للمفهوم المسيحي، فلم تبدأ إلا بعد نشر الترجمات الأولى للقرآن باللغات الأوروبية الحيّة. وقد قام بالترجمات الطليعية الأولى أندريه دو ربيه (André du Ryer) «قرآن محمد» (باريس 1647) وألكسندر روس (Alexander Ross) «قرآن محمد» (لندن 1648) وسالومون شفايغر (Salomon Schweigger) «القرآن المحمدي ـ قرآن الأتراك ـ دين وخرافة» (نورنبرغ 1616) ويوهان لانغه (Johann Lange) «القانون التركي الكامل أو قرآن محمد» (هامبورغ 1688) وأخيراً كلود إتيان سافاري (Claude Etienne Savary) «القرآن» (باريس1783).

كما أن أولى المدارس الغربية للعلوم القرآنية لم تنشأ وتتطور إلا في القرن التاسع عشر، وقد أسسها سيلفستر دو ساسي (Silvest-er De Sacy) ولكن هذه الدراسات مالبث أن ازدادت وتطورت، وخاصة بعد أن ابتدأ بعض المسلمين ينظرون إليها بجدية. وكانت في البداية عدة دراسات لسيرة النبي محمد ﷺ منها دراسات غوستاف فايل (1865) (Gustav Weil) ووليم موير (William Muir) (1861) وقد قاد اهتمام هؤلاء الباحثين بالاستطلاع التاريخي واستكشاف الأفكار سريعاً إلى هاجس حقيقي لتأريخ كل سورة من سور القرآن بل كل آية من آياته. وكانت قمة هذا البحث في كتاب تيودور نولدِكه (Theodor Nöldecke) «تاريخ القرآن» (1860) الذي وضع فيه التمييز الذي لا يزال ساري المفعول حتى الآن بين ثلاث مراحل مكية، ومرحلة واحدة مدينية. وقد كان كتابه هذا أهم عمل بحثي استشراقي في ذلك القرن.

ولم يكن عمل غوستاف فلوغل (Gustav Flügel) الذي أصدره سنة 1834 ويرقم فيه آيات القرآن الكريم ترقيماً لا يتفق مع أي ترقيم أو تعداد أجراه فقهاء المسلمين، بأقل لفتاً للنظر من كتاب نولدكه «تاريخ القرآن»، وخاصة بالنسبة للمواقف العقلية التي كانت مسيطرة في القرن التاسع عشر الإمبريالي. ولا نستطيع إلا أن نثبت رأينا هنا من أن التلاعب بنصوص مقدسة عند الديانات الأخرى، لا يجوز مطلقاً وقد أصبح الآن في عصرنا الحاضر غير ممكن. لقد بدأ فلوغل بما تحول لاحقاً إلى محاولات استشراقية قاسية لتفكيك

القرآن الكريم. ولا عجب بعد ذلك أن ذكر ماكس هينينغ (Max Hen-ning) في التقديم لترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الألمانية سنة 1901 أن الدور السياسي للإسلام «قد انتهى على ما يبدو».

لقد أدت محاولات الترتيب الزمني لتنزيل القرآن، والتي اعتبرها المسلمون بداية محاولات متغطرسة لابل تجديفية، إلى دراسة القرآن بالاستناد إلى معايير «علمية»: فقد نشر ريتشارد بِل (Richard Bell) بين عامي 1937و 1939 في إدنبره، ترجمة للقرآن أعاد فيها «ترتيب سوره بمقاييس نقدية». ولا غرو أن ولدت هذه المحاولات ميتة، وتوقفت بعدها كل المحاولات المشابهة. ولم يتوانَ زملاء بِلّ أنفسهم عن نقض عمله والإشارة إلى أنه حاول القيام بالمستحيل.

ثم حاول آرثر جيفري في منتصف القرن العشرين، وبالتعاون مع بعض الزملاء الألمان العاملين في معهد البحوث القرآنية في ميونيخ ـ ومن بينهم أوتو بريتسل (Otto Pretzel) ـ أن يضع «نصاً جديداً نقدياً» للقرآن من خلال أربعين ألف قطعة من بقايا نصوص قرآنية متفرقة. ولكن هذا المشروع دُفن تحت وابل قذائف الحرب العالمية الثانية. وعلى أية حال فقد اعتمد على «روايات متعددة» لم تكن تختلف عن بعضها إلا ببعض الأخطاء في الكتابة أو النسخ، ولم يكن بإمكانه البتة أن يظهر فرقاً واحداً من حيث المضمون.

وقد وصل جون وانسبرو (John Wansbrough)، من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن، سنة 1977، إلى قمة في محاولات «التهديم الاستشراقي» في كتابه «دراسات قرآنية: مصادر

وطرق في تفسير الكتاب المقدس». وقد ذكر في هذا الكتاب وفي كتاب آخر أصدره لاحقاً، نظريته التي لا يقبلها عقل أو منطق حول أن تاريخ صدر الإسلام برمته لم يكن له وجود، وإنما تم اختراعه لاحقاً، وربما وضعه مؤرخون في القرن التاسع.

ولم تبق هذه القمة في الإساءة وحيدة، فقد أتت محاولة أخرى لإنكار حقبة من التاريخ كانت أدهى وأمرّ، فقد زعم مايكل كوك (Michael Cook) في كتابه «قولٌ هذر: صُنعُ العالم الإسلامي»، وساندته في ذلك باتريسيا كرونه (Patricia Crone):

- أن القرآن لم يكن موجوداً قبل العقد الأخير من القرن السابع.
- وأن مكةَ لم تكن قلبَ العالم الإسلامي
- وأنَّ الغزو العربي للمناطق المجاورة كان قبل تأسيس الإسلام
- وأن هجرة الرسول من مكة إلى المدينة أسطورة وضعت في وقت لاحق.
- وأن المسلمين الأوائل لم يكونوا يدعون أنفسهم «مسلمين».

لم يتوصل هؤلاء المؤلفون إلى هذه الآراء التي رفضت منذ مدة طويلة إلا بعد أن رموا جانباً بكل المصادر الإسلامية التاريخية. ولعل هذا يشبه دراسة اليهودية من دون العودة إلى التوراة، ودراسة المسيحية دون العودة إلى العهد الجديد وأقوال رجال الكنيسة الأوّلين.

وربما استطاع المرء أن يفهم هذه المحاولات التي تهدف إلى تشويه صورة الإسلام ونبيه وتاريخه، إذا وُضِعت في إطار الصراع في الشرق الأوسط ومعاداة الصهيونية للإسلام. وتنطبق على كل هذه المحاولات الطائشة التي تختفي خلف المنهجية العلمية، كلمة إيغناتس غولد تسيهر (Ignaz Goldzieher) حيث يقول: «ماذا سيبقى من الإنجيل والتوراة إذا طبقت عليها نفس المنهجية التي يطبقها هؤلاء على القرآن؟». حقاً! أين سنصل إذا وضعت المنهجية قبل الحقيقة؟

ربما نستطيع أن نفهم إلى حد ما المستشرقين الأمريكيين والبريطانيين والألمان والفرنسيين والهولنديين في القرنين التاسع عشر والعشرين، الذين نشؤوا في عصر كان فيه الإلحاد شائعاً إلى جانب المذاهب اللا أدرّية والعلمانية الأخرى، إذا لم يؤمنوا بالتنزيل القرآني، لأنهم يعتقدون أن الله جل وعلا، مجرد وهم. وإذا كان موجوداً حقاً ـ حسب رأيهم ـ فإنه لن يريد أن يتكلم إلى شعب متخلف وبعيد عن الحضارة كالعرب.وكما نزع رودولف بولتمان (Rudolf Bultmann) كل صفة دينية وعقائدية عن التوراة والإنجيل، سعى هؤلاء المستشرقون لإرجاع كل ما هو إسلامي إلى حوادث تاريخية فقط، وليس القرآن إلا نسخة سيئة عن الإنجيل. وقد صدق بارفيز منصور (Parvez Man-soor) حقاً عندما قال: «لم يسبق أن تم التعامل مع ديانة كونية بهذه الروح العدائية المَرَضِيّة من هؤلاء المستشرقين كما تم ذلك مع القرآن».

كان جديراً بهؤلاء المستشرقين، لو كانوا شرفاء حقاً في دراساتهم، أن يطبقوا هذه المنهجية أيضاً على الرسالتين اليهودية والمسيحية، وينظروا إليهما أيضاً نفس النظرة الفوقية.

لقد ظهر خلال ذلك العديد من الباحثين في الإسلام المستعدين للاعتراف بأنه لا يمكن معالجة «الوحي» بعقلانية محضة، وبأن هناك منطقاً وعقلانية خاصة بكل ما هو روحاني وديني. وقد أصبح الاعتقاد اليوم بوجود أمور لا تدخل تحت الكيف والكم والرقم مقبولاً إلى حد بعيد. ومنذ هذا التحول ابتدأ كثيرون من الباحثين الغربيين في العلوم الإسلامية أخيراً بدراسة علمية منهجية صحيحة لمضمون القرآن. ومن هؤلاء الباحثين أنغليكا نويڤيرت (Angelika Neuwirth) في كتابها: «دراسات في أسلوب السور المكية» (1981) وكذلك نيل روبينسون (Neal Robinson) ـ الذي اعتنق الإسلام لاحقاً ـ في كتابه «اكتشاف القرآن» (1996).

وهكذا يمكن القول إن الدراسات الإسلامية الغربية قد عادت لتتركز حول الأساس في الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية، وهو الاستكشاف اللغوي للقرآن بدراسات نحوية ونصية. إلى ذلك عدلت عن دراسة المظاهر الأنتروبولوجية والاجتماعية والسياسية في الإسلام.

وباختصار: فقد استطاع القرآن أن يتجاوز مطبات الدراسات الإسلامية الغربية بشكل جيد.

القرآن في الفن

«لم تكن الديانة السماوية التوحيدية إنتاجاً عقلياً فكرياً فقط، وإنما تطلبت أيضاً تغييراً في الوعي والإدراك»

(كارين آرمسترونغ)

فن الخط:

إن كل من يذكر الفن الإسلامي لابد وأن يذكر فن الخط والكتابة، ومن يتكلم عن هذا الفن عادة فهو لا يعني الكتابة الصينية أو الكتابة اليابانية الجميلة، وإنما يعني قطعاً فن كتابة النصوص العربية. وفي الحقيقة فإن الكتابة الجميلة في القرآن ليست أجمل فن من الفنون الإسلامية فقط، وإنما تمثل أيضاً قمة في تطور الفنون العالمية.

لا تعود جذور هذا الفن في الكتابة إلى التقدير الرفيع الاستثنائي لنص القرآن الكريم، وإنما إلى استنكار الفنون التشكيلية في الإسلام. لذلك أتى فن الخط، وهو فن مجرد، جواباً على هذا الاستنكار. وعلى أية حال فإن الأحرف العربية صالحة أكثر من أحرف كل اللغات الأخرى لهذا التشكيل الجمالي، لأنها يمكن أن تكتب عمودياً أيضاً بالإضافة إلى كتابتها الأفقية وبأشكال انسيابية. وهذا ما يؤهل الكتابة العربية لتكون مادة تزيينية جمالية.

لقد كُتِب القرآن في القرن السابع بالخط الكوفي نسبة إلى مدينة الكوفة. وقد تم تطوير هذا الخط قبل الإسلام في ما يسمى اليوم الأردن. وهذا الخط الكوفي الذي بقي أساساً لمخطوطات القرآن الكريم حتى القرن الثاني عشر، يتميز بزوايا ولذلك فهو صعب وعسير، ويكتب بخط سميك على سطور مستقيمة، وعندما لا تكون الآيات مرقمة توضع بينها نُجيَمّات صغيرة. (وبالمناسبة فقد كان الترقيم مختلفاً بين مدارس المدينة والكوفة والبصرة).

إلا أن الحياة العملية اليومية تطلبت أسلوباً آخر أسلس وأسهل ويُمكّن من الكتابة بشكل أسرع. وهكذا ولد الخط العربي الثاني المعروف بخط النسخ بأشكاله المستديرة الرشيقة المنسابة. وقد استخدم هذا الخط بعد اكتمال تطويره في القرن العاشر لكتابة القرآن والمخطوطات الأخرى، وأزاح الخط الكوفي عن مكانته في القرن الثاني عشر، وقد قام بتطوير هذا الأسلوب المتناسق حسابياً، والجميل والأنيق مظهراً، الوزير العباسي ابن مُقلَة المتوفى في بغداد سنة 940.

أما أساليب الكتابة العربية الأخرى فقد نشأت عن تطوير هذين الأسلوبين الأساسيين، ومنها خط الثلث الذي ظهرت فيه لأول مرة تلك الانسيابات القطرية، وكذلك خط الرقعة الذي يعتبر أساس الكتابة الحالية العامة.

كذلك ظهر في القرن العاشر تطور للخط اختصت به المغرب والأندلس، وسمي الخط المغربي، وكان هذا الأسلوب المغربي رقيقاً وجميلاً مع خطوط انسيابية جميلة تشبه الزهور.

وقد بلغ فن كتابة القرآن الكريم قمة في بلاد فارس في عهد الصفويين، حيث استخدم لأول مرة أسلوب تعليق الخطوط المتتالية. كذلك بلغ أسلوب الكتابة العربية قمة أخرى في العهد العثماني عمل عليها حافظ عثمان (المتوفى 1689) وسمي الخط الديواني. ويتم في بعض الأحيان ترتيب الكتابة المجردة في أشكال متناظرة أو حتى على شكل صور: مثال ذلك يمكن كتابة الآية الأولى من سورة الفيل (105) بحيث تظهر حواف الكتابة على شكل فيل.

ومن أراد أن يطلع على تطور كتابة القرآن وفنها الجمالي، فما عليه إلا أن يطلع على مخطوطات أصلية نادرة للقرآن في بيت القرآن في المنامة عاصمة دولة البحرين.

ويزين المسلمون عادة جدرانهم منذ القديم حتى الآن بآيات قرآنية أو أحاديث شريفة مخطوطة بأشكال فنية، وغالباً ما تكون على شكل كسوة الكعبة على مخمل أسود مطرز بخيوط ذهبية. وربما كانت البسملة مكتوبة بشكل دائري وهي وسورة الإخلاص والحديث الشريف «إن الله جميل يحب الجمال» أكثر هذه اللوحات الفنية الجمالية انتشاراً. ويسمح الخطاطون الفنانون لأنفسهم بكتابة هذه اللوحات بحرية فنية واسعة بحيث تصبح قراءتها والتعرف إلى نصها مشكلة مربكة. أما الآن فلم يعد القرآن يكتب باليد، وإنما يطبع طباعة ومن الطريف المستغرب أن أول نسخة طبعت منه كانت في هامبورغ. وكما سبق ذكره فقد برزت ألمانيا في طباعة المصحف مرة ثانية سنة 1834 بترقيم ذاتي من المستشرق الألماني غوستاف فلوغل «النص العربي للقرآن».

ويعتمد الباحثون الغربيون في الدراسات الإسلامية اليوم على الطبعة التي تسمى طبعة الملك فؤاد الصادرة سنة 1918=1337هـ في القاهرة. لذلك فإن جميع نسخ المصحف الشريف المعتمدة حالياً متشابهة حتى في أصغر تفاصيل قواعد كتابتها.

إلا أن هناك نسخاً مطبوعة من المصحف الشريف تتميز بكتابتها الجميلة وبإطاراتها الرائعة المزدانة. وننوه هنا بشكل خاص إلى روعة وبهاء طبعة دار الفجر الإسلامي في دمشق، وتلك المجلدة بالأخضر والذهبي تحت اسم مصحف المدينة التي طبعت في مطبعة القرآن الكريم[1] التي أسسها الملك فهد بن عبد العزيز سنة 1984 في المدينة المنورة، وتبلغ استطاعتها السنوية عشرة ملايين نسخة. وقد أصدرت حتى الآن أكثر من 155 مليون نسخة من المصحف الشريف ومنها العديد مع ترجمات إلى أربع وعشرين لغة مختلفة.

العمارة:

سمعتُ أوليغ غرابار (Oleg Grabar)، أستاذ تاريخ الفن الإسلامي في جامعة هارفارد، في محاضرة له في برلين يقول: «إن الفن الإسلامي عبارة عن أعمال فنية تتجلى باحتوائها على الخط العربي». إن هذا التعريف المحيّر يعتمد على أن زخرفة فن الخط القرآني وليس الشكل الفني هي التي تعطي الطابع الإسلامي لفن العمارة.

(1) وجميع هذه الطبعات التي يشير المؤلف إلى جمالها مكتوبة بخط الفنان السوي البارع عثمان طه. (المترجم)

ربما بدا تعريف غرابار هذا مقلِلاً من قيمة الفن أو ربما تعريفاً انهزامياً. ولكن في النهاية علينا أن نعترف بأن هذا التعريف مُحقٌ، بعد أن رأينا أن العمارة التي قام بها المسلمون من الهند إلى أوزبكستان وأفغانستان إلى إيران وتركيا ومصر وحتى تونس والمغرب والأندلس، محاطة حقاً بأطر مزخرفة بكتابات قرآنية تزين مباني مقدسة ودنيوية كالمساجد والأضرحة والمدارس وحتى مخادع النوم في قصر توبكابي في إستامبول. كذلك مسجد بيبي خانم في سمرقند ومدرسة الشاه سلطان حسين في أصفهان، والجامع الأزرق في تبريز، وقبة الصخرة في القدس، ومدرسة بوروك كاراتاي في قونية، والجامع الكبير في قرطبة، كلها مزدانة بزخارف خطية من المصحف الشريف على جدرانها الداخلية والخارجية وعلى قبابها وفي محاريبها.

ولكن هناك نوع واحد من الفن الإسلامي لا تستخدم فيه أية كتابات زخرفية، وهو فن زخرفة السجاد لأن المرء يسير عليه.

التلاوة:

ابتدأ تنزيل القرآن في شهر كانون الأول/ديسمبر من عام 609 بطلب إلى النبي محمد ﷺ أن يقرأ! «إقرأ» (سورة العلق 1)، وتعني هذه الكلمة باللغة العربية أيضاً أن يقرأ على غيره ما يأتيه. وحقاً فإن القرآن ليس كتاب قراءة صامتة فقط، وإنما هو نص للتلاوة بصوت مسموع وواضح أيضاً. إذ عند ذاك تظهر روعة القرآن وجماله الطاغي.

وعلى أي حال فقد كانت هناك أشكال مختلفة تماماً للتجويد منذ القرن السابع، حيث حددت أماكن التشديد والإدغام والسرعة والوقوف. وقد تطورت تلاوة المصحف الشريف بأصوات جميلة إلى شكل من أشكال الفن الرفيع الإسلامي أطلق عليه اسم التغنّي. كذلك في أيامنا هذه يتنافس القراء المشهورون على التلاوة. ونذكر منهم على سبيل المثال بعض القراء الذين سجلوا تلاوتهم للقرآن على أشرطة تسجيل أو أشرطة مدمجة كالشيخ علي عبد الله شبير (19شريطاً) والشيخ عبد الباسط عبد الصمد (44شريطاً). كما أصدرت المملكة المغربية سنة 1989 تلاوة كاملة للشيخ محمد الكنتاوي على عشرين شريطاً. وهناك حديثاً تسجيل على أربعة وخمسين شريطاً يجمع بين التلاوة العربية للشيخ عبد الباري محمد، مع قراءة باللغة الإنكليزية للمستشرق غاي إيتون (Gai Eaton) وفق ترجمة عن العربية أنجزها مارماديوك بيكتال (Marmaduke Pickthal) وكان تسجيل هذه التلاوة بإيعاز من حاكم إمارة الشارقة الشيخ سلطان القاسمي.

إن المهم بالنسبة للتلاوة هو الطلب الإلهي الوارد في الآية الرابعة من سورة المزّمّل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ بمعنى القراءة الواضحة والمتأملة الخاشعة، كما طلب قراءة ماتيسّر فقط لطفاً ورحمة بالعباد كما تنص الآية العشرون من نفس السورة ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ولكن نبه إلى عدم جواز التلاوة السريعة: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: 16]. فالمبدأ إذن هو تلاوة القرآن بشكل واضح ومعتدل، بصوت منخفض مرتجف بالخشوع، دون أن يكون هناك

مبالغة أو مرافقة موسيقية. ولا بد من الإشارة إلى أن التلاوة المسموعة الجميلة للقرآن ليست هدفاً بحد ذاتها، فليس للقارئ أي حرية في تغيير النص أو اللفظ أو نبرة الكلمات. ورُوي عن الرسول الكريم ﷺ قوله إن أحسن القراء هو من يشعر المستمع بخشوعه.

يتّبع قراء الشرق الإسلامي على الغالب قراءة حفص بن سليمان الكوفي (متوفى 796) التي تعود بأسسها عبر جيلين فقط من الرواة إلى الخليفتين الراشدين علي وعثمان كما كانت في عصر النبي ﷺ. أما في الغرب فتغلب قراءة نافع. بالإضافة إلى ذلك فهناك خمس قراءات (حروف) أخرى مسموح بها شرعاً، وبذلك تكون هناك قراءات سبع ليس فيها أي اختلاف في نص القرآن أو معناه، وإنما تنحصر الفروق في اللفظ فقط. وقد أنزل القرآن بشكل عام بلهجة قريش المكية. إلا أن الرسول ﷺ قبل لهجات بني أسد وكنانة وتميم بعد أن انتشر الإسلام في القبائل الأخرى وذلك ليسهل عليهم تعلّم القرآن.

وخلال ذلك أثبت ياسين دوتون أن ما ذكره من نقاط ملونة في مخطوطات المصحف الشريف الكوفية والمغربية، ما هي إلا تنبيهات وضعت بشكل ذكي لتمييز القراءات المختلفة: فالنقاط الحمراء تدل على وجوب اللفظ وفق القراءة العادية، أما النقاط الخضراء والصفراء فهي مؤشر على جواز القراءات المختلفة.

ونود أن نذكر فيما يلي أهم ما يفرق بين القراءات السبع:

- اللفظ وبشكل خاص النبرة والمد وإدغام الحروف. (ومثال ذلك أنه في بعض الحالات قد يتحول لفظ النون إلى ميم أو أن حرف اللام قد لا يلفظ. وأهم قواعد اللفظ أن يعطى للحروف

الساكنة في أواخر الكلمات بعض من الرنين أو الغُنّة، بحيث يعطى لهذا الحرف حركة مناسبة. مثال ذلك لفظ «هوَ اللهُ أحدٌ» وهذا يمكن تسميته أيضاً بتشكيل أواخر الكلمات.

- السرعة وفترات التوقف.
- اللحن.
- شدة الصوت (صوت عالٍ أو صوت باكٍ شجنٌ خاشع).

في هذه الأثناء أصبحت لغة القرآن اللغة الأدبية الفصحى لكل العرب، ليس في الحجاز ونجد فحسب، وإنما في الخليج العربي وفي الشرق الأوسط وفي مصر والمغرب أيضاً. وبفضل القرآن الكريم بقيت اللغة العربية اللغة الوحيدة في العالم التي لم تحتج عبر ألف وثلاثمئة سنة إلى أي تغيير في اللفظ، أو أية تغييرات أو حذف في الكلمات.

ومما يؤكد أن تلاوة القرآن شكل من أشكال الفن بحد ذاتها إجراء منافسات في التلاوة تنظم تقريباً في كل بلد إسلامي، وخاصة في ماليزيا التي تنظم منافسات دولية في هذا المجال. كذلك فإن أستاذ الأدب، المصري نصر حامد أبو زيد، وهو نفسه تلميذ إحدى مدارس القرآن، يعترف اليوم أيضاً في منفاه وكما يذكر في كتابه «حياة مع الإسلام» أن «التلاوة الجميلة للقرآن تفعل فيه فِعل السحر».

التعامل مع القرآن

«القرآن دليل لكل المخلوقات على الأرض وهو كتاب يعلم لغة جديدة وهي لغة الروحانيات»

(مظفر حليم من كتابه: الشمس تشرق في الغرب ـ1999)

القرآن في الحياة اليومية:

تقول زوجة الرسول الكريم ﷺ السيدة عائشة إن النبي محمداً كان قرآناً حياً: «وكانت طبيعته هي القرآن». وهذا ما يسعى إليه المسلمون الأتقياء حتى يومنا هذا، حيث يحاولون طبع أفكارهم وأقوالهم بطابع القرآن. وهم يستشهدون لكل شيء بآية من القرآن بعد قولهم: «قال تعالى». وهم بذلك يؤكدون «أن القرآن محور الإسلام في حياتهم اليومية» كما قالت آنيماري شيمل.

يطلق المسلمون صفات على مقدساتهم، فيقولون القرآن الكريم أو القرآن الحكيم، كما يقولون مكة المكرمة والمدينة المنورة تشريفاً لها. وليس هناك كتاب آخر بقي على مدى ألف وثلاثمئة سنة شمسية معياراً ومرجعاً ثابتاً للغة. وهذا يفسر الاحترام البالغ للمصاحف الذي يزيد على احترام المسيحيين لإنجيلهم في بدايات عهدهم. وسواء كان القرآن الكتاب الوحيد في البيت أولا فإنه يوضع في صدر الدار وفي

مكان لايعلوه شيء فيه، في المكتبة أو الخزانة في غلاف خاص مزخرف. كما يعلق القرآن أيضاً في أماكن مرتفعة فوق الباب أو فوق سرير الزوجية مثلاً.

ومن مظاهر تكريم المصحف عند المسلمين أنه يُهدى ولا يُباع، ولكن يعوّض اقتناؤه بسعر مناسب. وتوزع حكومة المملكة العربية السعودية سنوياً ما يزيد على عشرة ملايين نسخة من المصحف الشريف مجاناً. كذلك من مظاهر الاحترام أنه ﴿**لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: 79]. كذلك لايجوز أن يرمى مصحف مهترئ أو صفحات منه في حال تمزقها أو امّحاء الكتابة عنها. وهذا ما جعل الحصول على تلك البقايا الشهيرة من المصحف في اليمن ممكناً، حيث وجدت محفوظة في كيس.

أما عند قراءة القرآن فيلجأ الكثيرون إلى استخدام حامل خشبي (رحلة) يمكن طيُّه. وتبدأ القراءة بالتعّوذ من الشيطان الرجيم ثم بالبسملة، أما نهاية القراءة فتكون بقول: صدق الله العظيم. ومن ثم يُقَبّل المصحف بعد انتهاء القراءة.

وإذا مرّ القارئ على مقطع فيه ذكر السجود لله تعالى، كما هي الحال مثلاً في سورة الأعراف 206 أو سورة العلق19، فعليه أن يسجد إلى الأرض. وهذه الأماكن مشارٌ إليها على الهامش بكلمة «سجدة».

ثم إن للقرآن في الحياة العامة في البلدان الإسلامية وضمن المؤسسات الإسلامية مهام احتفالية وبروتوكولية أيضاً. ونادراً ما نجد احتفالاً عاماً إلا ويفتتح بآي الذكر الحكيم.

كذلك لا ننسى الجانب الطقسي، فالمصحف يستخدم كتميمة مباركة أو يحمل كحجاب تطلب الحماية والبركة بشفاعته من الله تعالى. وغالباً ما تحمل سورتا المعوّذتين كحجاب.

ويدخل ضمن الاستخدامات الطقسية كتابة القرآن بحرف صغير جداً تتسع له صفحة واحدة كبيرة، أو يكون في كتيّب صغير لا يتجاوز قياسه 2.5×3 سم ولا تمكن قراءته إلا باستخدام العدسة المكّبرة. وبذلك يقترب المرء من استخدام المصحف استخدام من يؤمن بالخرافات. وقد بدأت تلك العادة حينما سار جيش معاوية سنة 657 إلى معركة صفين ورفعوا صفحات من المصحف على أسنة رماحهم، لينتصروا بذلك على جيش الخليفة الرابع علي بن أبي طالب. وهذا ما دَلَّ في وقت باكر على خطر سوء استخدام المصحف الشريف واعتباره شيئاً معبوداً.

وهناك خطر معاكس هو خطر تدنيس المصحف وانتهاك حرمته، منذ أن أصبح يسجل على أشرطة تسجيل وأقراص مدمجة وأقراص الحاسوب المرنة. وما يكاد القادم يصل إلى المطار ويصعد في سيارة أخيه الذي يستقبله حتى يعلو صوت التلاوة من مكبرات الصوت المجسّمة في وسط حركة السير الحاشدة ودون أن يتوقف الحديث.

مدارس القرآن:

يمكن للمرء أن يكون مسيحياً دون أن يحفظ حتى جملة واحدة من الإنجيل عن ظهر قلب. لكن ذلك مستحيل بالنسبة للمسلمين، إذ على المسلم أن يحفظ على الأقل بعضاً من قِصار السور حتى يستطيع تأدية

فرض الصلاة، فعليه أن يقرأ في كل ركعة من الصلوات اليومية الخمس سورة الفاتحة إلى جانب سورة قصيرة، أو مقاطع من سور أخرى، غيباً.

لقد حفظ القرآن بكامله عن ظهر قلب عدد من الصحابة الأوائل الذين سُموا حُفّاظاً منذ البداية. وهذه ولا شك قدرة كبيرة للذاكرة. ولم يبق حفظ القرآن محصوراً على الصحابة الأوائل، بل ازداد عدد الحفاظ حتى بلغ مئات الألوف ممن يحفظون القرآن بكامله عن ظهر قلب. فلا كتاب آخر كان له حِفظٌ مشابه، ولا ديانة أخرى غير الإسلام كان لها القدرة المرتكزة على أساس ديني لمقاومة الاضطهاد وقمع الحريات من قبل السلطات الحاكمة. وكما برهن القهر والملاحقة الهمجية للإسلام والمسلمين في ألبانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق المسلمة أن الإسلام عصي على القهر، لأن القرآن يبقى في صدور المسلمين وذاكراتهم، ولو منع طبع المصاحف وتم إحراق المتوفر منها.

زرتُ سنة 1999مدرسة قرآن في واد مدني جنوبي السودان بين النيل الأزرق والأبيض، وكان قد مضى على تلك المدرسة 375عاماً آنذاك، ومع ذلك بقيت تُدار حتى يومنا هذا بنفس الطريقة والأسلوب. وهذه المدرسة عبارة عن مدرسة داخلية يؤمها تلاميذ من كل أرجاء أفريقيا السوداء. وتبنى الشيخ الذي يساعده عدد كبير من المدرسين، هؤلاء التلاميذ كأب روحي لهم طيلة سنوات دراستهم الست. وبعض هؤلاء التلاميذ يبدأ دراسته منذ سن الثامنة كما أن عدد العميان منهم ليس قليلاً.

تبدأ الدراسة كل يوم في الثانية صباحاً عندما يكون الجو قد ابترد، بتعلم مقطع جديد من القرآن الكريم، وبعد صلاة الفجر وطعام الإفطار يكتب التلاميذ النص الذي درسوه بحبر لا يُمحى صنَعوه بأنفسهم، على ألواحهم الخشبية الكبيرة. ومتى انتهى تصحيح ذلك تتم مراجعة نص اليوم السابق. وبعد طعام الغداء عند الظهر يحق للتلاميذ أن يرتاحوا فترة طويلة لا تقطعها إلا الصلوات.

سُمح لي أثناء زيارتي لهذه المدرسة أن أطلب من أي تلميذ قراءة أي مقطع مما حفظه من القرآن، فلم يتخلف واحد منهم عن القراءة بلا أي خطأ أو تردد. ولابد من لفت النظر إلى أن هذه المدارس لا تدرس إلا القرآن الكريم، وتمتنع عن تدريس سنة الرسول مخافة أن تختلط نصوص هذين المصدرين الرئيسيين على التلاميذ.

يأتي كل تلاميذ مدرسة القرآن السودانية هذه من مناطق مختلفة في أفريقيا السوداء ممن تكون العربية لغتهم الأم ، ما يسهل عليهم فهم معاني القرآن. ولا ينطبق ذلك تماماً على مدارس القرآن في منطقة المزاب في جنوبي الجزائر (غرداية، بني عزقين، مليكة) لأن التلاميذ هناك يتكلمون البربرية لغتهم الأم، لذلك ينطلق التدريس هناك من فكرة أن التلاميذ في هذا العمر المبكر قادرون على الحفظ غيباً بسهولة، لذلك تكون مهمتهم الأولى حفظ القرآن غيباً، أما فهمه فهو مهمة طويلة تمتد مدى الحياة.

كما لابد من أن نلفت النظر أخيراً إلى أن القرآن يصف نفسه بأنه «الذكر الحكيم»، وتدل هذه التسمية على الذاكرة وعلى التذكير. أليس في ذلك حقاً تذكير بتطوير ما تم تعلّمه في الماضي حتى يجمع المرء بين صحة ما سلف وحداثة العصر مستقبلاً؟!

المراجع

Alwani, Taha Jabir ai-, Usul al-Fiqh: *Source Methodology in Islamic Juris prudence*. 3. Aufl., London: Zain International1999.

Ansari, Muhammad Abdul Haq: *Learning the Language of the Qur'an*. Delhi: Centre for Religious Studies and Guidance 1997.

Asad, Muhammad, Sahih al-Bukhari: *The Early Years of Islam.* Gibraltar: Dar al-Andalus 1981.

Atiyah, Hani M.: *Qur'anic Text: Toward a Retrieval System*. Herndon, VA: The International Institute of Islamic Thought 1996.

Ayoub, Mahmoud M.: *The Qur'an and its Interpreters*. Bisher 2 Bd., Albany: State University of New York Press 1984, 1992.

Bamyeh, Mohammed A.: *The Social Origines of Islam*: Mind, Economy, Discourse. Minneapolis; Univ. of Minnesota Press 1999.

Bobzin, Hartmut: *Der Koran im Zeitalter der Reformation*. Beiruter Texte und Studien, Bd. LXII, Stuttgart; Franz Steiner 1995.

Bobzin, Hartmut; *Der Koran, Eine Einfiihrung*. München; C.H.Beck, 2. Aufl. 2000.

Bucaille, Maurice: *Bibel, Koran und Wissenschaft*. Die Heiligen Schriften im Licht moderner Erkenntnisse. München; SKD Verlag 1984.

C:agman, Filiz, und Zeren Tanindi; *Islamic Miniature Painting*. Istanbul: Güzel Sanatlar Matbaasi 1979.

Cetin, Abdurrahman; *The Place of Music in Qur'anic Recitation*. Herndon, VA; The American Journal of Islamic Social Studies, Bd. 16, Nr. I, Frühjahr 1999.

Cragg, Kenneth: *The Event of the Qur'an*. London: Allen & Unwin 1971.

Cragg, Kenneth; *The Weight in the Word*. Brighton; Sussex Academic Press 1999.

Denffer, Ahmad von: '*Ulum al-Qur'an, An Introduction to the Sciences of the Qur'an*. Leicester: The Islamic Foundation, 5. Aufl. 2000.

Dutton, Yasin: *“Red DotI, Green Dots, Yellow DotI & Blue: Some Reflections on the Vocalisation of Early Qur'anic Manuscipts”*.Journal of Qur'anic Studies, Bd. 1, Nr. 1, London 1999, S. 115-141.

Faher, Mourad: *Introduction à la lecture du Coran*. Paris: Publisud 1998. Gätje, Helmut: *Koran und Koranexegese*. Zürich: Artemis 1971.

Golshani Mehdi: *The Holy Qur'an and the Sciences of Nature*. Tehran: Islamic Propagation Organization 1986.

Haikal, Muhammad Hussain: *Das Leben Muhammads.* Siegen: Tacken berg Verlag 1987.

Haleem, Muhammad Abdel: *Understanding the Qur'an - Themes and Style*. London: LB. Tauris & Co Ltd 1999.

Hamidullah, Muhammad: *The Prophet’s Establishing a State and his Succesion*. Islamabad: Pakistan Hijra Council 1988.

Hamidullah, Muhammad: *The Life and Work of the Prophet of Islam.* 2 Bd., stark erw. Aufl., Islamabad: Islamic Research Institute 1998.

Hamidullah, Muhammad: “History of the Qur'an” *in: The Emergence of Islam.* 3. Aufl., S. 8-22, Islamabad: Islamic Research Institute 1999.

Hammad, Ahmad Zaki: *The Quran: Interpretation in Context.* Bd.1: The Opening to the Quran, Bridgeview, IL: Quranic Literacy Institute 1996.

Hasan, Ahmad: *The Qur'an: The Primary Source of Fiqh.* Islamabad: Islamic Studies, Bd. 38, Nr. 4, Winter 1999.

Hofmann, Murad W.: “Germany and the Qur’an”, *Journal of Qur’anic Studies*. Bd. 2, Nr. 1, S. 143-147, London: Centre of Islamic Studies 2000.

Ibn Ishaq, Muhammad: *The Life of Muhammad*. Übers. A. Guillaume, Oxford: Oxford University Press 1955.

Ibn Kathir, Abu Fida' Ismail: *The Life of the Prophet Muhammad*. 4 Bd., Reading: Garnet 1998/1999.

Ibn Taymiyya: *Einfübrung in die Methodologie der Qur’an-Exegese.* Aus dem Arabischen von Elsayed Elshahed. Riyadh: Ibn Saud Universitat 2000.

Ihsanoglu, Ekmeleddin (Hg.): *World Bibliography of Translations of the Meanings of the Holy Qur’an - Printed Translations 1515-1980*. Istan bul: CUe. (IRCICA) 1986.

Imam, Ahmad ‘Ali al-: *Variant Readings of the Qur'an: A critical Study of their Historical and Linguistic Origins*. Herndon, VA: I.I.I.T 1998. Jeffery: *Materials for the History of the Text of the Qur'an: The Old Codices*. Leiden: E.J. Brill 1937.

Johns, A.H.: “Narrative, Interrext and Allusions in the Qur'anic Presen tation of Job”. *Journal of Qur’anic Studies*, Bd. 1, Nr. 1, London 1999, S.I-26.

Kafrawi, Shalahudin: “Methods of Interpreting the Qur’an”. *Islamic Studies*, Bd. 37, Nr. 1, Islamabad: Fruhjahr 1998, S. 3 ff.

Kanoo, Abdul Latif Jassim: *Beit Al Qur’an.* Manama: Beit AI Qur'an 1996.

Karic, Enes: “Interpretation of the Qur’an and the Destiny of the Muslim World”. *IslamicStudies*, Bd. 36, Nr. 1,Islamabad: Frühjahr 1997, S. 5 ff.

Kazmi, Yedullah: “Faith and Knowledge in Islam: An Essay in Philosophy of Religion”. *Islamic Studies*. Bd. 38, Nr. 4, Islamabad: Winter 1999, S. 503 ff.,

Kermani, Navid: *Gott isrt .schön, Das ästhetische Erleben des Koran.* Mün chen: C.H. Beck (1999), Sonderausgabe 2000.

Lester, Toby: “What is the Koran?”. *Atlantic Alonthly*. Januar 1999, S.43-56.

Lings, Martin: *The Quranic Art of Calligraphy and Illumination*. New York (Brooklyn): Interlink Books 1987.

Lings, Martin: *Muhammad. Sein Leben nach den frühesten Quellen.* Kandern: Spohr Verlag 2000.

Manzour, Parvez: “Method against Truth: Orientalism and Qur’anic Studies”. *The Muslim World Book Review*, Bd. 7, Nr. 4, Sommer 1987.

Maududi, Abu A’ala: *Towards Understanding Qur’an*. Lahore: Islamic Publications Ltd., 4. Aufl. 1997.

Michaud, Roland und Sabrina: *Colour and Symbolism in Islamic Architecture*. Paris: Imprimerie nationale Editions 1995.

Mir, Mustansir: *Coherence in the Qur’an: A Study of Islahi’s Concept of Nazm in Tadbbur-i-Qur’an*. Washington, D.C.: American Trust 1986.

Mir, Mustansir: *Coherence of the Qur'an*. Indianapolis: American Trust Publications

Murad, Khurram: *Way to the Qur'an.* Leicester: The Islamic Foundation 1985.

Nadim, Muhammad b. Ishaq al-: *The Fihrist* (Bagdad 990). Engl. Übers., 2. Aufl. Chicago: Kazi Publications 1998.

Nöldeke, Theodor: *Geschichte des Qorans.* Leipzig: Diederichs, 2. Aufl.1926-1936.

Osman, Fatih: *Concepts of the Qur'an, A Topical Reading*. Los Angeles: MVI Publications 1997.

Paret, Rudi, Mohammed und der Koran, Stuttgart: Kohlhammer 1957.

Paret, Rudi: *Der Komn - Kommentar und Konkordanz*. Stuttgart: Kohlhammer 1971.

Rahman, Afzalur: *Subject Index of Qur'an*. Lahore: Islamic Publications 1983.

Rahman, Fazlur: *Islam*. Chicago: University of Chicago Press, 2. Aufl. 1979.

Rahman, Yusuf: “The Miraculous Nature of Muslim Scripture: A Study of ‘Abd aI-Jabbar’s *ljaz al-Qur’an”. Islamic Studies*. Bd. 35, Nr. 4, Islamabad: Winter 1996, S. 409 ff.

RassouI, Abu-r-Rida Muhammad Ibn Ahmad Ibn, Lan Tabur: *Themenregister des Al-Qur’an Al-Korim*. Köln: Islamische Bibliothek t 993.

Rida, Muhammad Rashid: *The Muhammadan Revelation*. Alexandria, VA: AI-Saadawi Publications 1996.

Robertson, Kenneth G: Jesus or Isa: A Comparison of the Jesus of the Bible and the Jesus of the Koran. New York: Vantage Press 1983.

Robinson, Neal: *Discovering the Qur’an*: A Contemporary Approach to a Veiled Text. London: SCM Press 1996.

Saeed, Abdullah: “Rethinking >Revelation< as a Precondition for Reinterpretation of the Qur’an: A Qur’anic Perspective” Journal of Qur’anicStudies, Bd.l, Nr.l, London 1999, S. 93-114.

Schimmel, Annemarie: *Und Muhammad ist Sein Prophet*. Dusseldorf: Diederichs 1981.

Schimmel, Annemarie: *Deciphering the Signs of God*. Edinburgh: Edinburgh University Press 1994.

Schwarzenau, Paul: *Korankunde für Christen*. Stuttgart: Kreuz Verlag 1982.

Shahm, Mustafa: "The Philological Endeavours of the Early Arab Linguists" *Journal of Qur'anic Stlldies*, Bd. 1, Nr. 1, S. 27 - 46 und Bd.2, Nr. 1, S. 43 - 66, London: Centre of Islamic Studies 1999/2000.

Sells, Michael: *Approaching the Quran. The Early Revelation.* Oregon:WhiteCloud Press 1999.

Shahrour, Mohammad: "The Divine Text and Pluralism in Muslim Societies" *In: Muslim Politics Report*. Nr. 12, New York 1997.

Surty, Muhammad Ibrahim: *The Science of Reciting the Qur'an*. Leicester: The Islamic Foundation 1987.

Syamsuddin, Sahiron: "Muhkam and Mutashabih: An Analytical Study of al- Tabari's and al-Zamakhshari's Interpretation of Q. 3:7". *Journal of Qur'anic Studies*, Bd. 1, Nr. 1, London 1999, S. 63-80.

Tabari, Abu Dschafar al-: The History of al- Tabari, Bd. 6 und 7, Übers.W. Montgomery Watt, Albany: State University of New York 1987 /1988.

Tabari, Abu Dschafar al-: *The Commentary of the Qur'an*, Bd. 1, Oxford: Oxford Univ. Press 1987.

van Ess, Josef: "Vision and Ascension: Surat al-Najm and its Relationship with Muhammad's mi'raj". *Journal of Qur'anic Stlldies*, Bd. 1, Nr. 1, London 1999, S. 47-62.

Walker, Benjamin: *Foundations of Islam*. London: Peter Owen, 1998.

Warraq, Ibn, Hsg.: *The Origins of the Koran: Classical Essays on Islam's Holy Book.* Amherst, N.Y.: Prometheus Books 1998.

Wild, Stefan (Hg.): *The Qur'an as Text, Islamic Philosophy, Theology and Science.* Bd. XXVII, Leiden: E. J. Brill 1996.

Zaid, Nasr Hamid Abu: *Ein Leben mit dem Islam*. Freiburg: Herder 1999.

الترتيب الزمني لتنزيل سور القرآن الكريم

وفق الطبعة النموذجية المصرية للقرآن الكريم (طبعة الملك فؤاد)

السور المكية:

96-1	94-12	53-23	50-34
68-2	103-13	80-24	90-35
73-3	100-14	97-25	86-36
74-4	108-15	91-26	54-37
1-5	102-16	85-27	38-38
111-6	107-17	95-28	7-39
81-7	109-18	106-29	72-40
87-8	105-19	101-30	36-41
92-9	113-20	75-31	25-42
89-10	114-21	104-32	35-43
93-11	112-22	77-33	19-44

20-45
56-46
26-47
27-48
28-49
17-50
10-51
11-52
12-53
15-54
6-55
37-56
31-57
34-58
39-59
40-60
41-61

42-62
43-63
44-64
45-65
46-66
51-67
88-68
18-69
16-70
71-71
14-72
21-73
23-74
32-75
52-76
67-77
69-78

70-79
78-80
72-81
82-82
83-84
84-30
85-29
86-83

السور المدنية:

2-87	59-101
8-88	24-102
3-89	22-103
33-90	63-104
60-91	58-105
4-92	49-106
99-93	66-107
57-94	64-108
47-95	61-109
13-96	62-110
55-97	48-111
76-98	5-112
65-99	9-113
98-100	110-114

نبذة عن المؤلف

مراد فيلفريد هوفمان، ولد في تموز سنة 1931 في ألمانيا، يحمل شهادة الدكتوراه في الحقوق سنة 1957، عمل في السلك الديبلوماسي الألماني مدة ثلاث وثلاثين سنة (1961-1994). كان أخيراً سفيراً للجمهورية الاتحادية الألمانية في الجزائر (1987-1990) والمغرب (1990-1994) اعتنق الإسلام سنة 1980 وألف منذ ذلك الوقت العديد من الكتب والمقالات حول مواضيع خاصة بالعلاقات بين الثقافات والأديان. نشرت دار ديدريخ للنشر كتابه الذي أثار اهتماماً كبيراً تحت عنوان «الإسلام كبديل» (1992) وقد استأثر أيضاً بقبول كبير واهتمام واسع في العالم الإسلامي. تبع ذلك كتابه «رحلتي إلى مكة» (1996) و«الإسلام في الألفية الثالثة» (2000). كما ألف لصالح سلسلة يديدريخ كومباكت» كتاب ياالإسلام» ويعيش الدكتور هوفمان اليوم مع زوجته التركية، متنقلاً بين استامبول وأشافنبرغ. ويلقي محاضرات كثيرة في أمريكا ودول أوروبا الغربية والدول الإسلامية.